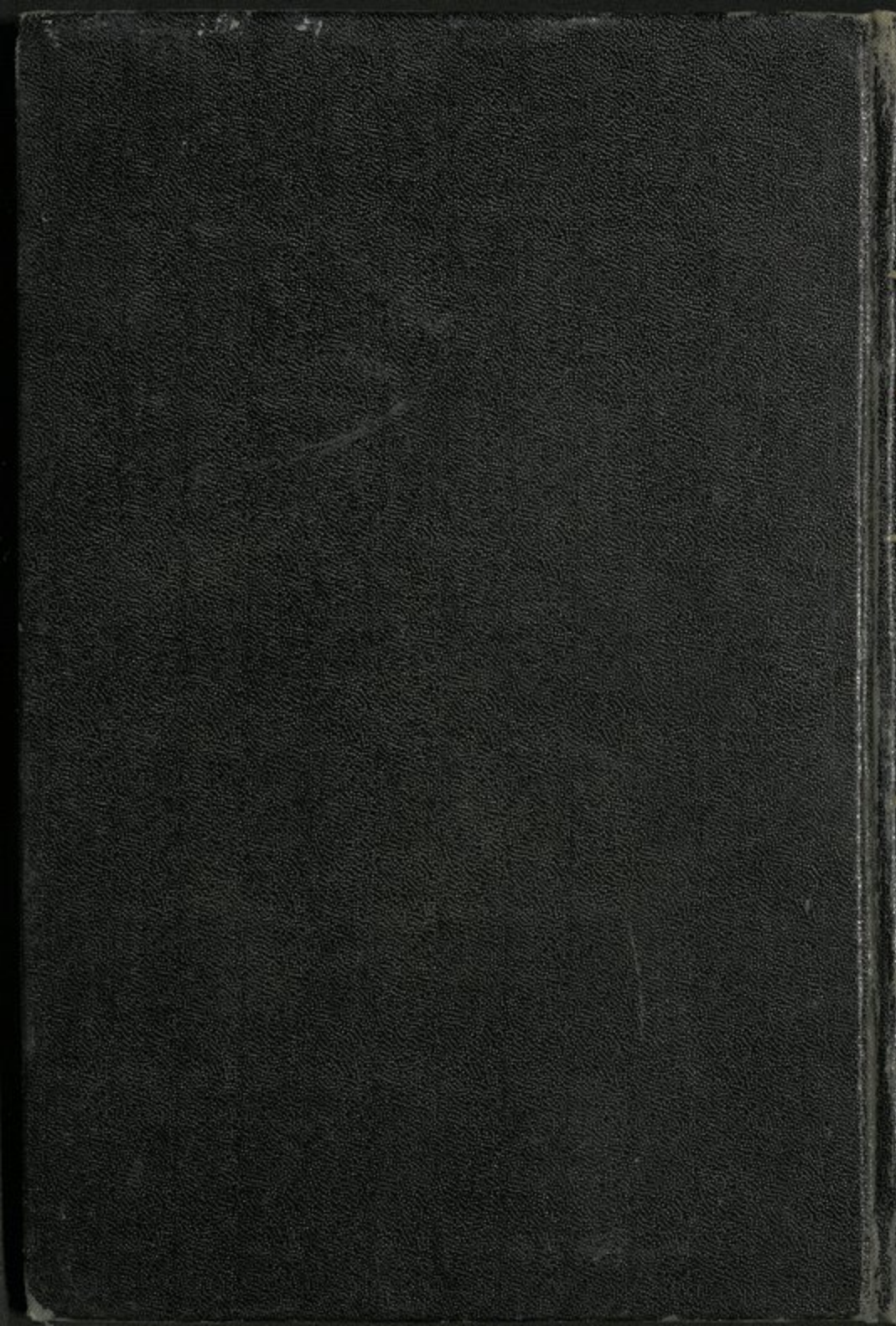
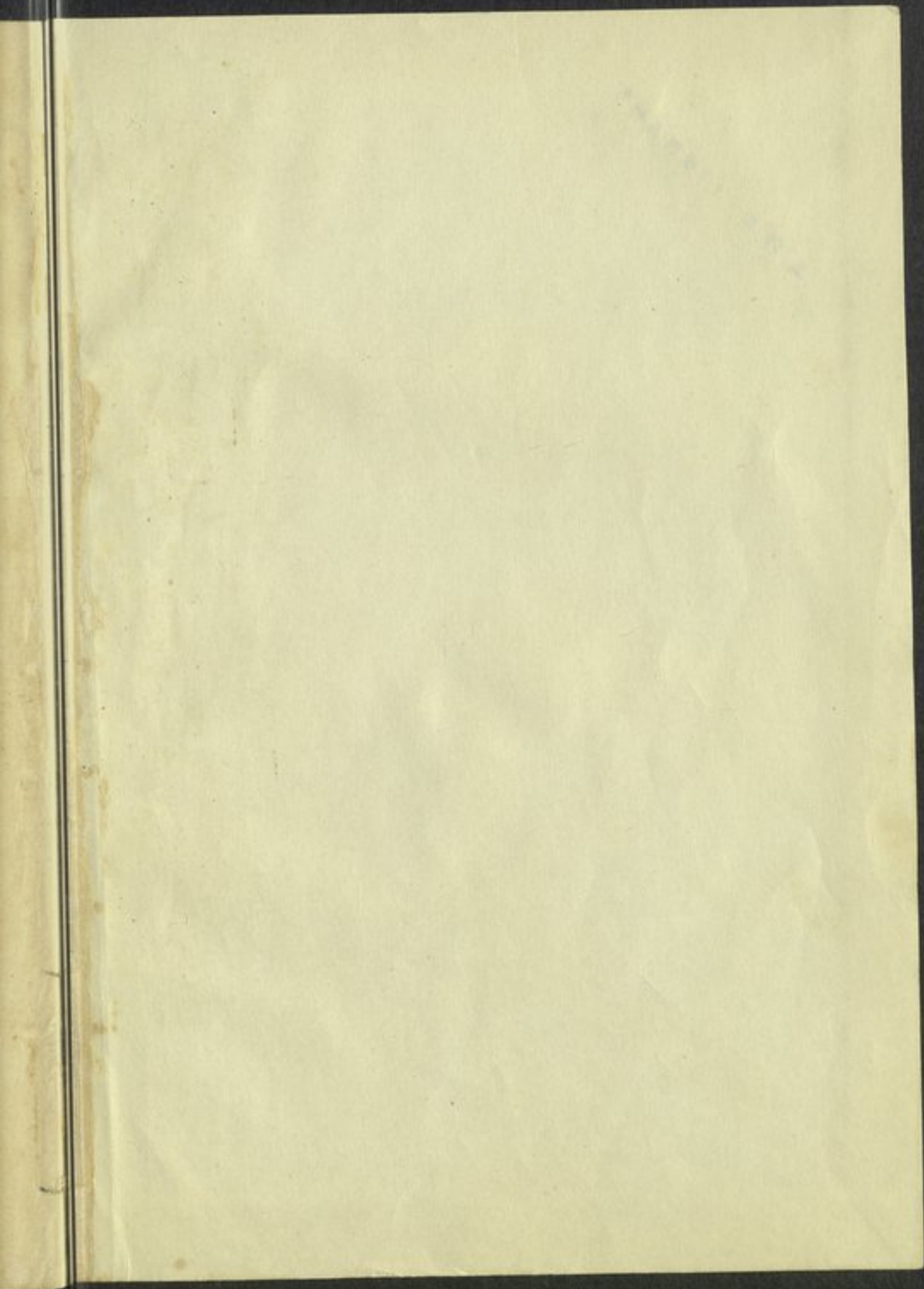




AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.B.D. LIBRARY



892.72

Ala 438 mm

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التي نشرت بالعربية

عهد الشيطان : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨

مطبعة التوكل عام ١٩٣٩ } براكسا
أو
مشكلة الحكم

راقصة المعبد : مطبعة التوكل عام ١٩٣٩

نشيد الأنشاد : مطبعة مصر عام ١٩٤٠

حمار الحكيم : مطبعة التوكل عام ١٩٤٠

سلطان الظلام : مطبعة التوكل عام ١٩٤١

من البرج العاجي : مطبعة التوكل عام ١٩٤١

مطبعة التوكل عام ١٩٤١ } تحت المصباح
الأخضر

كتب توفيق الحكيم

التي نشرت في لغة أجنبية

شهر زاد } ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج
ليكونت عضو الاكاديمية الفرنسية .

عودة الروح } ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٣٥
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧

يوميات نائب
في الأرياف } ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ بمقدمة للدكتور
حافظ عفيف باشا

أهل الكهف } ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت مدير دار الآثار العربية

عصفور من
الشرق } ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١

من
البرج العاجي

بجاءه في هذا

١

ما أطول حديثنا الصامت في برجنا العاجي .
 هذا البرج الذي يحرسه «تنين» الوحدة . وما أكثر
 تلك الخواطر التي تمر برؤوسنا أحيانا كالطيور العابرة
 دون أن نقتنص منها شيئا . هنا داخل هذا الأطار
 وبين هذا السياج سأحبس ما يقع منها تحت

ذاكرتى . وان خواطرى لكثيرة . لأن أوقات
عزلى طويلة . وليس لى علم بلعب النرد وغيره من
وسائل قتل الوقت . فالوقت عندى هو الذى يقتلنى
لأننى لا أعرف كيف أقتله . ولقد حاولوا كثيراً
فى صباى أن يعامونى تلك الألعاب التى تلهى الناس
عن أنفسهم فى أوقات الفراغ . ولكنى كنت
أنسى دائماً فى المساء ما علمونى إياه فى الصباح . ولم
ينفع فى أمرى تعليم ولا تفهيم . وخرجت من
عهد الصبا دون أن أحقق لعبة أو حاجة . شئ
واحد كان يلهينى ويسرنى . وقد كان عندى بمثابة
النرد والأحاجى . ذلك هو الجدل حول فكرة من
الأفكار . ولكم أتعبت كثيراً من أولئك الذين

كانوا يلعبون معي هذا الضرب من الشطرنج في وقت من الأوقات . لقد كنت أضيع عليهم نهارا بأكله دون أن أتبرم . وإن رؤوسهم لتكل فما أرحمهم وما أرحم نفسى . إن حب التفكير لنقمة . آه لو علم الناس كيف يعيش الأدباء ورجال الفكر . إذن فليعلموا أن القدر يوم دفع الأدباء الى الوجود صاح فيهم ساخرا : « اذهبوا فان لكم الفكر ولكن ... » ولم يتم كلامه وابتسم ابتسامة هى أبلغ من التعبير . نعم . ما من أديب أو مفكر الا أدرك أخيرا بعد أن قطع شوطا من الحياة أن شيئا آخر ربما كان أجدى عليه من الفكر قد سلب منه إلى الأبد . إنا نحسد أحيانا بقية الناس . واني لا تصور القدر

وهو يشيع الآخرين الى باب الوجود قائلاً لهم :
« اذهبوا فان لكم الحياة... ولكن... »
أجل انه ينتسم لهم كذلك عين ابتسامته الساخرة .
ولكن هؤلاء الناس لا يفهمون قط أن القدر سلبهم
شيئاً . وهنا الفرق بيننا وبين بقية الناس : اننا نحن
رجال الفكر ندرك تمام الادراك ما سرق منا وما
فقدنا . أما الآخرون فلا يعلمون . وهذا سر عذابنا
نحن .

والآن وقد تكشفت لنا حياتنا الفكرية عن برج
مرتفع لا خروج لنا منه . برج يملؤه السكون ولا نسمع
فيه غير صدى أصواتنا الضائعة . فلنتكلم اذن بين تلك
الجدران . فان رجع الصدى يؤنس على الاقل وحشتنا .

مضت أعوام عديدة على ذلك اليوم الذى
شعرت فيه بغتة بدوار الصعود الفكرى ، على أثر
مطالعات كثيرة وتأملات عميقة فى عزلة طويلة .
وبدا ذلك على وجهى فسمعت طيبيا يسدى الى
النصيحة أن أترك كل شئ ، وأذهب من فورى الى

البحر ، أستنشق الهواء وأغمض عيني بغير تفكير .
لقد كنت أحسب التأمل كل شيء في حياة الأديب
و كنت أعتقد أن حياتي ستمضي قراءة كلها وتفكيرها
على ذلك النحو وبذلك المقدار . فكنت استهول
العاقبة وأنساءل عن النتيجة .

ومرت الأيام فاذا بي انصرف بعض الشيء عن
المطالعة والتأمل . واذا الأعوام تنفق في شيء آخر
لم يكن في الحساب . هو البحث عن الجسم الذي
تحل فيه تلك الأفكار الهائلة كالأرواح . هنا وضحت
لعيني العضلة . وفهمت أن التفكير في ذاته يسير ،
ولكن العسير هو أن أقيم « الفكرة » على قدميها
كائننا نابضا يتحرك ويسير . إن القليل من عمر الفنان

هو الذى يبذل فى التفكير الصرف ، والكثير منه
هو الذى يذهب فى سبيل صنع ذلك اللحم والدم
الذى ينبغى أن تسكنه الأفكار .

إن « الطبيعة » أستاذنا الأعظم نحن الأدباء
والفنانين تفكر هى أيضا . غير أنها لا تفكر
« كلاما » . فهى تجهل « اللغات الحية » . ولكنها
تفكر « مخلوقات حية » .

« تفكير » الطبيعة « اسلوب » . وان طريقتهما
الواحدة فى تركيب الكائنات جميعها ، من عالم
الجراثيم الى عالم الأجرام ، لهى وحدها التى نقرأ
منها تفكيرها .

« الخلاق » فى الفن أيضا لن يستحق هذا الاسم

حتى يصبح التفكير عنده مماثلا لتفكير الطبيعة ،
فيملك تلك القدرة السحرية أو الهبة السماوية ، التي
بها يخرج أفكاره من رأسه تجرى لابساً أثواب
الحياة .

كذلك خالقو الشعوب وبناء الحضارات ، كل
عبقريتهم انهم لا يفكرون « كلاماً » وان الأفكار
والتأملات عندهم لم أيضاً لا تكتب كما هي ولا تقال ،
انما ترى قائمة متحركة في صورة أمة ناهضة أو على
شكل ثورة متفجرة .

ذلك معنى « الخلق » . وتلك هي « الأفكار »
في لغة كل خلاق .

طالما جلست في صباى ساعات طويلة أتأمل
قوافل النمل تسير على الحيطان . وكنت أحيانا
أدنو منها وأصيح بأصوات مدوية . فما يبدو عليها
أنها سمعت شيئا ، فالنظام هو النظام . والخطى هي
الخطى . والتجارة الضخمة المحمولة على الاعناق ، وهي

جناح «صرصار» كبير ، ما زالت تنهادى مطمئنة
في طريقها الى عاصمة المملكة العتيقة داخل ذلك
الثقب البارز في أسفل الجدار . وكانت الجيوش قد
قاربت المدينة . وخرجت جيوش أخرى تستقبل
القادمين وتحمل عنهم بعض العبء . وكأن الجميع
في فرح وحركة ولفظ لا يصل صدها الى مسامعي
الغليظة . كما أن أصوات الرعدة لا تبلغ آذان تلك
المخلوقات الدقيقة . فحدثني النفس أن أحدث حدثا
في تاريخ هذه «البشرية» الصغرى . فأتيت بكوب
من ماء وصببت مما فيه على القوافل الظافرة .
ولبثت أنظر الى الكارثة في ابتسام . فاذا شمل
الجيوش قد تمزق واذا الذعر قد دب في الجموع .

ولكن الفلول سرعان ما عادت تلتئم ، وتحمل « التجارة »
من جديد في حرص المستميت . عند ذاك أقصيت
الكوب وقد تحرك قلبي وقلت في نفسي : ان هذه
المملكة ولا ريب تأخذ الآن عبثي على سبيل الجد .
وانها ولا شك تحسب ما حدث الساعة ظاهرة من
ظواهر الطبيعة القاسية . فما هذا عندها الا سيل
العرم أو طوفان هائل أو قضاء هبط من السماء .
وتأملت لحظة شأننا نحن « البشرية » الكبرى .
وقلت : من أدرانا أنا لسنا أحسن حالا من هذا
التمل ؟ ومن أدرانا أن ما نسميه ظواهر جوية
وطبيعية من زوابع وأمطار وقضاء وقدر ليس الا
عبث مخلوقات أخرى ذات أحجام وصفات لا

نستطيع لها تصورا ؟ ومن أدرانا أن ليست في هذا
الكون أصوات هيهات لا ذنانا الصغيرة أن تدرك
وجودها . لم لا نكون نحن أيضا نملا أرقى من هذا
النمل ، وأحط من نمل آخر من جوهر آخر لا نعرف
ماهو ؟ ان الله لأعظم مما نظن . وان حواسنا
لأقل إدرا كما لما في هذا الكون مما نتخيل .

من أحب المطالعات الى نفسي كتب العالم

الرياضي «هنري بوانكاريه» . عندي من مؤلفاته ثلاثة

كتب : «العلم والطريقة» و «العلم والفرض» و «قيمة

العلم» . قرأتها لأول مرة منذ عشر سنوات .

وأعود اليها من حين الى حين . انها تسحرني كما تسحر

الأطفال قصص ألف ليلة وليلة . فأنا الآن
لا أقرأ كثيرا كتب الأدب . لأنى أنا نفسى
أصنع كتباً فى الأدب . ولكنى أحب أن أصغى الى
أولئك الذين يبحثون فى صمت عن الحقيقة . هؤلاء
الذين عندهم ما يقولون ولكنهم يرفعون عن الكلام .
لأن الحقيقة التى يحاولون أن يتصيدوا شبح خطاها
خلف «المكرسكوبات» و «التاسكوبات» لأروع
وأعظم من أن توضع فى ألفاظ وعبارات . على أن
ما يعينى من كلام هؤلاء العلماء ليس الأرقام
والمعادلات أى «الوسائل» . ولا يعينى كذلك ما
وصلوا اليه من «نتائج» . ولكن الذى أقرأ من أجله
هذه الكتب هو تلك الاشراقات الذهنية التى تلمع

من خلال بحوثهم ، فتضىء جانباً من جوانب الفكر
المهجورة . ليس العلم في ذاته هو الذى يهمنى ولكن
هى « العقلية العلمية » فى مصادمتها ومواجهتها
للأشياء . لا شئ يذلى مثل مجالسة « عالم » متسع
الأفق . وهذا النعت لا ألقيه جزافاً . فان من
كبار رجال العلم من هم ضيقو الأفق . أى سجناء
معادلاتهم وأرقامهم ، يصلون بها مع ذلك الى نتائج
باهرة فى صميم العلم . ولكنهم قلما ينظرون الى العالم
الخارجى ، وأعمالهم قلما تعنى غير فئة صغيرة من
زملائهم العلماء . انما الطراز الذى أقصد ، هو طراز
رجل العلم المطبوع الذى يخرج بعد ذلك لينظر
بعين العلم وعقلية العلم الى الكون بمعناه الواسع .

هي «فلسفة العلم» ما أريد ، لا العلم نفسه . هنا
بعد هذه القراءات يتضح لى أنا «رجل الأدب»
كيف أن مخلوقا آخر يسمى «رجل العلم» ينظر الى
ذات الأشياء التى أنظر اليها ويفكر فى هذا الكون
الذى افكر فيه ، ولكن بعين أخرى وعقل آخر .
ومن يدري ؟ لعل أكثر هؤلاء العلماء الذين ننعتمهم
بأتساع الأفق هم أيضا لا يلذ لهم شىء مثل قراءة
الآداب ، ومجالسة «رجال الأدب» . وهو الواقع .
فما الأمر فى باطنه الا شوق وحب استطلاع بين
نوعين مختلفين من هذا الحيوان المفكر .

أُمس خرجت من برجى العاجى إلى البرج
 الدائر . والبرج الدائر هو مرصد حلوان . دعانى إلى
 زيارته مديره . وهياً إلى المنظار الكبير مسدداً إلى
 القمر . فذهبت يدفعنى الشوق إلى استجلاء سر هذا
 الكوكب الجميل ، الذى نظم فيه شعراء الأرض

نصف شعرهم ، ودان له عشاق الأرض بنصف
هنأهم . ورفعت عيني إلى تلك العين الذهبية التي
طالما رعت بنورها نصف حياتنا ، وسهرت على
مسرأتنا ، وسكنت من أحزاننا . نظرت ، وإذا أنا
أتراجع أسفاً وألماً . لا أحب أن أصف ما رأيت .
ولكني أحب أن أسجد لله شكراً إذ جعل لنا عيوننا
لا تبصر إلا بمقدار . إن كل الجمال المحيط بنا إنما هو
من صنع عيوننا القاصرة . والويل لنا إذا أبصرت
أعيننا الآدمية أكثر مما ينبغي لها أن تبصر .
ذلك شأن القمر باعث الجمال على الأرض .
كذلك شأن الشمس باعثة الحياة على الأرض . إنها
تشرف علينا من مكان معين بمقدار . فإذا اقتربت

منا أنملة هلكنا حرقاً ، وإذا ابتعدت عنا أنملة متننا
برداً . إن يد الحكمة الأزلية قد وضعتها في الموضع
الذي لا بد لها فيه من أن ترسل إلينا الدفء والخير
والسلام .

ما أدق هندسة الكون ! اللهم إني أعود إلى
برجى وأنا شديد الأيمان بك ، قريب الفهم لك ،
مدرك بعض الإدراك لمشيئتك في خلق الانسان ،
مطمئن كل الاطمئنان إلى مراميك في إنشاء
حواسنا الآدمية على هذا الضعف . إن ما اعتدنا أن
نسميه ضعفاً وقصوراً في إدراكنا حقيقة الأشياء
ليس إلا السياج الذي يحمى سعادتنا البشرية . فإذا
خرجنا عن نطاق هذا السياج فقد انقلبنا مخلوقات

أخرى لا تتصل بالأرض ولا يجالها ولا بمشاعرها .
مخلوقات ليست آدمية ، فقد ترى غير ما يرى
الآدميون . وقد ترى أبعد مما يرون . ولكنها لن
تكون من أجل ذلك أسعد ولا أسى ولا أنبل .
اللهم إنك مع قصورنا قد صنعتنا على خير حال
ومع جهلنا قد هيات لنا أحسن مآل .

كان إيسن يقول : « الرجل القوي هو الرجل
 الوحيد » . كان إيمانى شديدا بهذه الكلمة . وما
 برحت أرى فيها دستورى الذى لا ينبغي أن أحيد
 عنه ، فانا كلما انطويت على نفسى واعتصمت ببرجها
 اعطتنى كل ما أريد من قوة ومنعة . وكلما التمت

ذلك عند الناس أو عند اصحاب الجاه والسلطان
شعرت انهم أضعف من أن يستطيعوا لمثلى خيرا أو
شرا . فليست قوتي المنشودة فى القابهم ولا فى ثرائهم
انما هى فى شىء ليس فى مقدور أحد أن يمنحنيه غير
نفسى . فالدولة لا تستطيع ولن تستطيع ان تخفض
أو ترفع من قدرى وقيمتى فى نظر الزمن والتاريخ .
وهنا كل منعتى . فانا اذن لا احتاج الى الدولة فى شىء
لانها لا تستطيع ان تمنعنى أو تمنحنى شيئا ذا اثر
فى كيانى الحقيقى .

إن التاج الذى يوضع فوق جبينى ليس فى
مقدور يد صنعه غير يدي . ولا جواهر تزينه غير
الجواهر المستخرجة من كنوز نفسى .

٧

+

البرج العاجي عند أكثر الناس معناه اعتصام
الكاتب بالسحب اعتصاما يقصيه عن أحداث الدنيا
وحقائق الوجود ، وهذا غير صحيح . على الأقل
بالنسبة إلى . فما من حدث استوجب تحرك القلم الا
حرك قلمي . وما من أمر هز البشرية الا هز نفسي

بل ما من قضية من قضايا الحياة الكبرى التي تمس
الانسان وتطوره وتقدمه الا شغلتنى ودفعتنى الى
الجمهور بالرأى حتى فى النظم السياسية والاقتصادية
والاجتماعية . دون التفات الى عواقب الرأى الحر
والنقد المر . فما بالى أشهد تلميحيين أن وآن من
رجال الاصلاح الى هذا البرج العاجى كأنه وكر قصى
يسكنه طائر منفرد لا يريد أن يحط علي جيفة من
جيف الأرض . واأسفاه ! كان بودى أن أكون
هذا الطائر . ولكن العصر الحديث لا تمتنع عليه
الابراج والأوكار ، فان أزيز آلاته ودوى صيحاته
قد أفسد سكون الأعلى على المفكرين والأطيار .
لا يوجد اليوم الكاتب الذى لا يغمس قلمه فى وحل

البشر . لأن القلم اليوم عصا في يد الإنسانية بها
تسير . لا مرود نكحل به عينيها . حبذا لو كان
صنع الجمال كل مهمتنا . لقد كانت خير رسالة للقلم
الارتفاع بالإنسان على « براق » الفكر الى حيث
ينسى في لحظة أو لحظات أنه من تراب الأرض
خالق . ولكن الناس طلبوا الى القلم مطالب وسخروه
في مآرب وجذبوه الى طينهم يتكثون عليه كلما خافوا
الاتزلاق . وكان لهم ما أرادوا . ونزلت من
الأبراج أفواج الكتاب ينخرطون في سلك
الأحزاب . متوزعين في ميادين السياسة والاقتصاد
والاجتماع . مخدوعين بما يقال لهم من أن مراكز
القيادة مكانهم ، والله أعلم ان كانوا في هذا المكان

وضعوا أو أنهم حشروا مع العبيد والمسخرين . قليل
جدا من الكتاب في مصر والشرق من يستطيع حقا
ان يقود ولا يقاد . اولئك هم الذين يقودون من
« ابراهيم العاجية » كما يقود الربان السفينة من برجه
الزجاجي المرتفع ، دون ان يغمره هرج النوتية أو
يعمى بصره بخار الآلات . القيادة الحقيقية ينبغي
ان تكون مرتفعة كالرأس في جسم الانسان . وان
تكون منفصلة عن بقية الجسم إلا من بعض شرايين
واعصاب تنقل الأفكار من البرج الى الأطراف .
ما من رأس يقع مع الأعضاء في صعيد واحد
الا رأس الخمور . ذلك الذي يسقط منتشيا بخمور
المطامع الأرضية ، صريعا بكأس الشهوات المادية .

ما أكثر الاقلام التي خدمت الأحزاب
والنظم . بل ما أكثر الاقلام التي خدمت الاصلاح
نفسه . . . ولكنها كانت تعلم وهي تفعل ذلك ويعلم
عنها الجميع انها قبل كل شيء . انما كانت تخدم انفسها
وجيوبها ومآربها .

البرج العاجى هو الزم ما يلزم للقادة الروحيين .
والبرج العاجى الذى اقصده هو السمو عن المطامع
المادية والمآرب الشخصية . البرج العاجى الذى
اريدته لنفسى ولغيرى من الكتاب هو الوحدة .
الوحدة بمعانيها العليا العظيمة : أى الاستقلال
والحرية والكمال .

الرجل الوخيد البعيد عن تقلبات الأهواء

المرتفع عن مصطخب الأنواء . الكامل بنفسه .
المكمل للآخرين . « البرج العاجي الخلق » هو ما
اريد . لا البرج العاجي الفكري . ليس من حق
مفكر اليوم أن ينأى بفكره عن معضلات زمانه .
ولكن من واجبه أن ينأى بخلقه عن مبادل عصره
وسقطاته . لأن أول خطوة للقائد الروحي هي نحو :
« المثل الأعلى » وأول صور المثل الأعلى هو :
« المثل الخلق » . وأول من يبرزه القائد نموذجاً للمثل
الخلق هو : شخصه .

« البرج العاجي » عندي هو الصفاء الفكري والنقاء
الخلق . وهو الصخرة التي ينبغي أن يعيش فوقها
الكاتب مرتفعاً عن بحر الدنيا الذي يغمر أهل عصره .

لا خير عندي للمفكر الذي لا يعطى من شخصه
مثلا لكل شيء نبيل رفيع جميل .

لا يدخلن في الروع أنى أطلب الى الكاتب
حبس نفسه فلا يختلط قط بالناس . فليختلط ما شاء
بأجناس البشر كافة . لكن على نحو اختلاط الأنبياء
الذين يأكلون في الأسواق ويشاركون الناس كل ما في
الحياة الا الصغائر والآثام . فالكاتب قد يكون دائما
بين الناس وهو مع ذلك في برج عاجي مرتفع .
البرج العاجي المرتفع ليس سوى نفسه البيضاء التي
ترتفع عن الدنس . انه مع الناس في التراب يجسمه
لا بنفسه . انه يقاسمهم كل شيء الا ضعفهم الخلقى
والفكرى . انه مع الناس ليفهمهم ويرحمهم ويصورهم

ثم ليرشدكم وليكون لهم القدوة والنبراس . اذا فعل
الكتاب ذلك في كل عصر لكان للبشرية شأن غير
هذا الشأن .

إن مثلاً واحداً أنفع للناس من عشر مجلدات .
لأن الأحياء لا تصدق الا المثل الحي . لهذا كان
النبي الواحد بمثله الخلقى الحى وجهاده واستشهاده فى
سبيل الخير أهدى للبشرية من آلاف الكتاب الذين
ملأوا بالفضائل والحكم بطون المجلدات . إن
أكثر الناس يستطيعون الكلام عن المثل العليا ولا
يستطيعون أن يعيشوها . لهذا كان الأنبياء قليلين
وكانت حياتهم إعجازاً . فالى البرج العاجى أيها
الكتاب . البرج العاجى بما فيه من صفاء فكرى

ونقاء خلقى . ذلك البرج الذى أحاول أن أجده
فى الوحدة . الوحدة المعنوية . أى الاستقلال
والكمال والحرية !!

٨

نفسى بطبيعتها لا تنزع إلى ترف الحياة . ولقد
عشت إلى وقت قريب ضالا . ليس لى بيت مستقر
ولا راحة موفورة . ولا حتى مكتبة خاصة تعيننى
على عملى الأدبى . إلى أن أوهمنى بعض الناس أن
مكانتى كأديب تقتضى أن أغير هذه الحياة .

فأصغيت إلى هذا الكلام واتخذت لى مسكنًا أنيقًا
فى أجل بقاع القاهرة يشرف على النيل . واقتنيت
سيارة جميلة ، وجعلت لى مكتبة تزينا التحف
والتماثيل . وأكثرت من حولى الخدم يعنون
بأمرى . وأعجبنى قليلا مظهرى هذا الذى يماثل
مظهر أدباء أوروبا المشاهير . وغرنى الحال . وحسبت
أننا نتمتع فى الشرق بمثل ما يتمتعون من قوة وحرية
ومنعة . فانطلق قلمى مرة يبدى رأيا صريحًا فى
مسألة قيل إنها تمس السياسة . وإذا أنا أقع فريسة
لأجراءات مهينة ، فالتفت يمينًا وشمالًا أبحث عن
عالم الأدب يتولى الدفاع ، لا عنى ، بل عن حرية
الفكر المهددة . فلم أجد أحدًا من الأدباء قد

تحرك . ولم أر صحيفة قد همها الأمر . وخرست
كل تلك الجرائد التي طالما رفعت صوتي على صفحاتها
واتفق الكل اتفاقاً طبيعياً على إهمال الموضوع .
ولم يحفل أصدقائي ولا زملائي ولا قرأئي بما حدث
لي . ولم يدركوا الخطر الذي يهدد الأدب والأدباء
إذا هم شعروا يوماً أنهم لا يستطيعون أن يخرجوا
ما في نفوسهم .

على أن الحادث في حياته قد هز عقيدتي في
منزلة الأدب . ونجني لا في شخصي ، ولكن في
مركز الأديب في الشرق ، فقد أيقنت أن ما يسمونه
« المسكاة الأدبية » إنما هي وهم من الأوهام . وأن
الأدباء أنفسهم هم المسئولون في أكثر الأحوال عن

انخفاض شأنهم في المجتمع لخلل بعضهم بعضا .
وأحسست من نفسي الذلة ، فتركت سكنى
وسيارتى وخدمى ، وعدت من جديد أعيش شريداً ،
كما يستحق أديب في الشرق أن يعيش .

ليس على الأرض أخطر ولا أقوى من آدمي
يعيش من أجل فكرة . هذا الآدمي الذي يركز
كل وجوده في فكرة كما تتركز أشعة الشمس في
عدسة ، ليستطيع أن يحدث مثلها حريقاً مخيفاً أو نوراً
وهاجاً ساطعاً . إن أغلب الأنبياء والرسل وقادة

الفكر وعظماء التاريخ الذين قلبوا العالم أو ملئوه ضوء
وجالاً كانوا كذلك : أشعة متجمعة في عدسة
فكرة . إنهم لم يعيشوا للحب والحياة ؛ إنما عاشوا
من أجل فكرة .

ذاك خاطر مر برأسي في لحظة من اللحظات .
ولست أدري أنا مصيب فيه أم أنه عزاء جميل
أدخله على نفسي كلما ذكرت وأيقنت أنني أيضاً
أدعى لم يخلق كي يعيش للحب والحياة . لماذا أعطى
دائماً الفكرة ثمناً أغلى من حياتي ، دون أن أشعر
ودون أن أريد ؟ آه . . . لو أتيح لي أن أعيش حياتي
كما أحب ؛ ولو سمح لي أن أقدر الحياة كما يقدرها
السعداء من الآدميين ! لقد منحني الله من أسباب

النعيم ما لم يتيسر مثله للكثيرين ، فلم أبسم ولم أسعد ؛
فقد عافت نفسي مائدتي المنمقة وسيارتي اللامعة
ومسكني الرحب . آه . . . إن أجمل أفكاري ما
ظهرت إلا أثناء سيرى البطيء على الأقدام . وإن
أذاكلة عندي هي ما اقتصرت على لون واحد من
الطعام . وإن خير مسكن لي هو حجرة واحدة أضع
فيها كل ما يربطني بالوجود من كتب وورق وفراش
وثياب . لقد صحت يوماً من أعماق نفسي : « اللهم
أتم نعمتك عليّ وجردني من كل هذا النعيم الذي لا
أفهمه ، واملاً قلبي بحب نورك وحده ، فيه تزهر كل
فضائي الآدمية كما يزهر النبات تحت الشمس الحارة
الباردة ! » وكان لي ما أردت ، وانقطعت للفكر

وتجردت . ولكن ...

لكن هل كل من تجرد من حياته في سبيل
الفكر ينظمه الزمن في سلك العطاء ؟ لست أظن .
وهنا الكارثة . هنالك رجال خلعوا رداء الحياة دون
أن يلبسوا الفكر ثوباً وضاء . أولئك هم التعمساء في
الدارين . أخشى أن يكون قد كتب على مصير
هؤلاء ! .

الرأى الصريح الحر قوة ينبغي ألا تخلو منها أمة
 من الأمم الآخذة بأسباب الحضارة . ووجود هذا
 الرأى ألزم من وجود البرلمانات فى ضمان العدالة
 والحد من طغيان السلطات ؛ لأن هذا الرأى لا
 يتطرق اليه عادة ذلك الفساد الذى يشوب اعمال

النظم السياسية والاجتماعية ، فهو صادر عن قلب
حار نبيل قد ارتفع عن دنيا الأغراض والمجاملات .
على أن المشكلة هي دائماً : كيف نعثر على هذا
الرأى ؟ قد نستطيع أن نعثر على العنقاء ، ولكننا لن
نستطيع أن نظفر فى كل زمان بصاحب الرأى الحر
الصريح . لماذا ؟ لأن هذا المخلوق ينبغى أن يكون
مركباً تركيباً مخالفاً لتركيب أغلب البشر . فلا بد
أن يكون قد عرف كيف يستغنى عن الناس ، وأن
يكون قد وطن نفسه على أن يمضى فى طريقه دون
أن يعبا بسهام الناس التى أصابت جسده . وألا
يكون له عند أحد حاجة ولا مطمع . وأن يكون محباً
للوحدة معتاداً العزلة ، قانعاً من الدنيا بأبسط متاع

وأقل مؤونة . ذلك أن أول خطوة في هذا الطريق
الوعر يصادفها صاحب الرأي الحر ، هي فقد
الأصدقاء والأعوان . ثم يلي ذلك تألب الجميع عليه ،
لأنه لم يرض أحداً ولم يمالئ فريقاً ولم يعتصم بجماع
جهة من الجهات ، ولم يستظل بقوة من القوى . إنه
وحده منبع كل شيء . وهو بمفرده الواقف في وجه
جميع القوى متضافرة . إنه قد ينهزم وقد يتحطم
وينهدم تحت ضربات الجميع ، ولكن راية الرأي
الحر تبقى خفاقة في الهواء عالية مرفوعة في يده الميته .
حبذا لو كان لي هذا المصير العظيم ! لقد
أتاحت لي الظروف أن أطلق رأيي ذات يوم حرّاً في
بعض الأمور فأحسست في الحال أنني فقدت كل

سند من كل جهة من الجهات ، ولم يعد لى صديق .
ولم يبق حولى سوى عيون نارية تنتظر ساعة
الانقضاء على والفتك بى . غير أن كل هذا لم
يزعجنى . فلقد شعرت فى عين الوقت أن فى يدى
شيئاً يخفق عالياً ، أدركت أنه هو وحده الباقي .

القوة الحقيقية للرجل هي أن يستطيع أن :
 « يقول ما يريد وقما يريد أن يقول » . والرجولة
 الحقيقية هي أن يبذل المرء دمه وماله وراحته وهناءه
 ودعته وطمائنته وأهله وعياله وكل أثر عنده وعزيز
 عليه في سبيل شيء واحد : « الكرامة » . والكرامة

الحقيقية هي أن يضع الانسان نفسه الأخير في كفة
وفكرته ورأيه في كفة ، حتى إذا ما أرادت الظروف
وزن ما في الكفتين رجحت في الحال كفة رأيه
وفكره . كل عظماء التاريخ كانوا كذلك . بل إن
مصر الفقيرة اليوم في العطاء قد عرفت ذات يوم
رجالا من هذا الطراز . رجال لم يترددوا في تضحية
كل شيء من أجل فكرة ، والنزول عن كل متاع
من أجل رأى . بمثل هؤلاء الرجال ربحت مصر
كثيراً في حياتها المعنوية والفكرية . بل إنى لا أبالغ
إذا قلت إن الأمم لا تبني ولا تقوم إلا على
أكتاف هؤلاء . وإن الخطر المخيف هو يوم تخلو
أمة من أمثال هؤلاء . نعم . وإنه ليخالفني الآن

شئ من القلق إذ أنظر حولي فلا أكاد أرى في مصر أثراً لهذه الفئة العظيمة . فناموس اليوم هو وطء الفكرة بالأقدام ركضاً خلف الجاه الزائف والمال الزائل ، وإنكار الرأى والجن عن إعلانهِ حرصاً على الراحة وإشاراً للطمانينة . وهكذا قد خلت صفحة تاريخنا من أسماء العظماء هذه السنوات وعجت بلادنا بأصحاب الألقاب وحملة الشارات وراكبي السيارات ! وحق لنا جميعاً أن نسأل هذا السؤال : ما هي المعجزة التي تنهض هذا البلد وهو على هذا الخلق ؟ ! وهل يطول غضب الله علينا فلا يظفرنا بعظيم من هؤلاء العظماء الذين يستطيعون أن يردوا الاعتبار إلى قيمة الرأى ، ويطهروا النفوس

من درن المسادة ، ويعيدوا المثل العليا النبيلة إلى
مجدها القديم ، ويرتفعوا بالأمة كلها في لحظة إلى
سماء الخلق العظيم ! إذا حدث ذلك فقد نجونا .
وإذا لم يحدث ذلك فلا شيء ينتظرنا غير انحلال
أكيد ، وهبوط إلى مرتبة العبيد .

. في طفولتي ظاهرة عجيبة لم استطع لها حتى
اليوم تعليلا طبييا . لقد كنت أصاب من فوري
بحمى تلزمني الفراش أكثر من أربعة أيام كلما وقع
بصرى على جنازة مارة في الطريق . وقد لبثت على
هذه الحال ثلاث سنوات ، من الثالثة حتى السادسة .

وكان أهلى يعرفون ذلك عنى . فكانوا يحرصون كل
الحرص على ان يجنبونى منظر الجنازات . وانى
لأذكر يوما كنت مع جدتى فى مركبة عائدة بنا من
السوق إلى البيت . وكنت فى أحسن صحة وأتم
سرور . وإذا جنازة تعبر شارعا بعيداً ، أبصرتها
عين جدتى ، فبادرت إلى الحوذى راجية هامة ان
يحيد بمركبته عن ذلك الشارع سريعا . وحسبت
المسكينة انها افلحت تلك المرة فى انقاذى من الحمى .
ولكنها شعرت برعدتى . فالتفتت الى . فاذا وجهى
الشاحب يتصبب عرقا . فأدركت انى لمحت الجنازة
ساعة لمحتها هى . وان الحمى سرت فى جسمى وانتهى
الأمر . ما العلاقة بين ذلك المرض الجثمانى والخوف

من منظر الموت ؟ لم يبحث أحد هذه المسألة .
فلقد كانوا يكتفون باستدعاء الطبيب فيعالج الحمى
بعلاجها المألوف حتى أبرأ منها . ولم يخطر على بال
أحد أن يسأل هذا السؤال الذى القيمه على نفسى
اليوم ؟ أترى الموت كان يريد انتزاعى من الحياة ؟
أتراها قصة « ملك الجن » التى رواها « جوته » فى
إحدى قصائده الرائعة : لقد حكى أن طفلا تعلق
بعصدر أبيه ليحميه من ملك الجن الذى يغريه برائع
الهدايا واللعب والأزهاركى يذهب اليه ويمضى معه .
ولكن الأب حسب كلام ابنه عبث أطفال فلم يأخذ
الأمر على سبيل الجد ، حتى رأى ابنه يسقط من
بين ذراعيه وقد فارق الحياة .

أترى الأطفال في صفائهم الملائكي يحسون
ويسمعون وقع اقدام ملك الموت ؟ اذكر في طفولتي
ايضا حدثا غريبا وقع لعمة لي طفلة كانت تكبرني إذ
ذاك بعامين . لقد كنا نلعب في رهط من الأطفال
كل يوم . وكانت لعبتنا واحدة لا تتغير . لأن
هذه العمة الطفلة هي التي كانت تصر على تكرار
هذه اللعبة بعينها : كانت تقع على الأرض ممثلة دور
المریضة ثم تصنع كأنها تموت . واني لأذكر ان قلبي
كان ينقبض انقباضا شديدا لهذه اللعبة وكان صدري
يضيق بها طول يومى . إلى ان رحلنا وفارقنا عمتي
الطفلة : فما كاد يمضى عام حتى قالوا لي انها ماتت .
تلك امثلة ناطقة على الصلة الخفية بين الروح

والجسد . إني فيما وقع لي ، أعتقد اني كنت محلا
لصراع عنيف بين قوتين : قوة الموت أى الحرية
المطلقة فى فضاء اللانهاية ، وقوة الحياة أى
الحبس داخل جسيم حى محدود . هاتان القوتان
كانتا تتنازعا وجودى . وكانت الحرب بينهما سجالا .
على أن الجسم كان يتخاذل منهوكا محموما فى ميدان
ذلك الصراع الخفى كما ظهرت له قوة الموت أو
الحرية فى صورة محسوسة ، كالجنابة ، تستطيع
حواسه المادية أن تشعر بها وتفزع منها . ومضت
أيام الطفولة . وأسدل العقل ستاره الصفيق على
صفاء الروح . فلم تعد تسمع خطوات ملك الموت .
وشفيت من الحمى . ولم يبق من أثر لتلك الحرب

الضروس غير ذلك المظهر المعنوى الحالى للعراك
القسائم فى نفسى بين الحرية الروحية والفكرية
وبين ذلك الجسم المقيد بأغلال نوااميسه ويثته
وحدوده الأرضية .

انى حر . انى حر حرية تكاد تخرجنى أحيانا
 من نطاق النوع البشرى . انى حر من قيود
 الأسرة والتبعة . حر من أغلال الزمان والمكان ،
 اتنقل فيها بفكرى . وقد استطيع اذا شئت التنقل
 فيها بجسمى . حر فى النظر الى الأشياء ، فلم تعم

بصرى عقيدة من العقائد ولا مبدأ من المبادئ .
حر المزاج فلم تستعبدنى هواية من الهوايات ولا
مكيف من المكيفات ولا عادة من العادات . حر
العقل ، حر القلب ، حر الجسم . انى فى وحدتى
وحريقى أكاد أشبه لا آدميا من الآدميين ،
بل فقاعة انطلقت من كأس أو فكرة شردت
عن كتاب . لكنى مع الأسف ، على الرغم
من كل ذلك ، آدمى حى . لى عقل يجب أن يفكر
داخل إطار إنسانى محدود . ولى قلب يجب أن
يمتلئ بعاطفة من العواطف . ولى جسم يجب أن
يخضع لقوانين الحياة فى الأجسام . وهنا سر عذابى
ومنبع شقائى . إن حيايتى حتى اليوم لا تريد أن

تكون شيئاً غير ذلك الصراع الدائم الهائل بين روح الحرية المطلقة وبين نواميس كياني الآدمي . إن ذلك التمرد على هذه النواميس ، الذي بدأ عندي منذ الطفولة ، ما زال حتى الساعة قائماً . لقد رفضت الطفولة وأنا طفل . فكأنت لي أحياناً مظاهر الشيوخ . ورفضت الخضوع لأحكام الزمن . فكنت أعيش أحياناً الحاضر في المستقبل وأعيش المستقبل في الحاضر . واختلطت بذلك علاقتي بالزمن وارتبكت صلاتي بالناس والأشياء . وحدثني كانت هي حصني ، اعتصم بها كلما أحسست أن أزمة توشك أن تعود من أزمت تلك الحرب الضروس بين الحرية والنواميس . اني يوم صورت

« شهریار » فی قصتی « شهر زاد » لم یخطر لی علی
بال انی أصور نفسی . شهریار مع ذلك كان أوفر
حظاً منی . فقد كانت الی جانبه شهر زاد تجاهد
جهد الجبارة کی تصلح فی طبیعته الخلل ، وتعيد
التوازن الانسانی الی کسانه المضطرب . لیست لی
شهر زاد . انی وحید . لقد تحررت وتجردت حتی
من الرفیق والشفیق . انی اتألم أحياناً آلاماً لا
يعرفها الأدمیون . ولیست هنالك عین تستطیع
أن ترى هذه الآلام . فان وجهی الذی یبدو للناس
هو من سوء طالعی قناع كأقنعة التمثیل عند اليونان .
بارد الملامح ، أبله القسمات ، جامد النظرات ،
لا یشیر فی الناس شیئاً غیر الفتور . وهو یخفی عنهم

دائماً ذلك الوجه الآخر الحقيقي الذى لم يره قط بشر .
انا ايضا استطيع ان اقول كما قالت الالهة « ايزيس » :
قناعى لم يكشفه بعد إنسان ! حتى عينى التى تذرف
العبرات ليست هى العين الظاهرة . ليس بينى وبين
العالم الظاهر صلة . ان درجة احتمالى الألم النفسى
بلغت حدّاً مروعاً ، واتخذت صورة قد تهول الناس
لو اطلعوا عليها . ربما كنت قد تحررت أيضاً من
الألم . ولكن آه ... أيها الناس ... أيها الناس ...
بى رغبة أن أصبح أحياناً صيحة أمزق بها الفضاء :
إنى سجين « حريتى » ! إنى سجين « حريتى » ! ..

في ورقة منفصلة بين مخلفات « بهوفن »
وجدت هذه الأسطر الدامعة : « الحب ، ليس غير
الحب ، هو وحده الذي يستطيع أن يجعل حياتك
سعيدة ، آه يا آلهي ، دعني أجدها أخيرا ، تلك التي
في مقدورها أن تدعم فضائي ، تلك التي قد سمح

لى أن تكون زوجتى .

ومات بهوفن ولم يسمح له . أترى الطبيعة
عدو الفنان ؟ تضن عليه بما تمنحه الآخرين .
نعم . انها لتقسو عليه وانها لتغار منه أحيانا وتقول
له فى لغتها الصامتة البليغة :

— أنت تطلب الىّ أنا أن أمنحك الحب ؟ لا ،
انى أمنحه كل الناس الا أنت . انى أمنحه أولئك
المساكين الذين لا يستطيعون أن يخلقوا شيئا أما
أنت فتستطيع أنت نفسك أن تخلق « الحب » .
انك مثلى عبقرية خالقة . كل عملك فى هذا الوجود
أن تصنع « الحب » وتمنحه الناس .

وهكذا تتخلى الطبيعة غالبا عن الفنانين العظام ،

وتتركهم يبحثون سدى عن السعادة فلا يجدونها كما
يجدها الآخرون ملقاة كالفاكهة الناضجة ساقطة
تحت الأشجار . انما هي لهم شيء بعيد . كلما مدوا
اليه أيديهم ابتعد عنهم وتركهم يائسين . عندئذ
ينكبون طول حياتهم على كنوز نفوسهم وحدائقها
اليانعة يستخرجون منها للناس فاكهة من ذهب
وفضة ، تقصر الطبيعة أحيانا عن تقديم مثلها .
ولكن الطبيعة تنظر الى الفنان نظرة التشفي مع
بسمة السخرية .

— أفهمتنى الآن ، وعامت أن كلينا يعيش في
الحرمان ، وأن سر وجودنا أن نعطي ولا نأخذ . ??
فيقول لها الفنان في نبرة ألم :

— نعم ، ولكنك أنت الطبيعة . أما أنا فأدعى
مسكين . انك لا تتألمين أما أنا فأتألم . إذ أرى
الحياة تزول من تحت قدمي . ولم يسمح لى بحظ
قليل من الهناء الذى يسخى به على الآدميين !
— الآدميين ؟ ومن قال انك منهم ! عند ما
وضع على منكبيك رداء « العبقريّة والخلود » خلع
عنك فى الحال بعض خصائص الآدميين !

« هتلر » ذلك الرجل الذى يعيش وحيداً قويا
 لا يعرف المرأة ولا يذوق اللحم ولا الخمر ولا يفكر
 إلا فى السيطرة على العالم وقيادة البشر ، ذلك الرجل
 الذى لو خرجت من بين شفتيه كلمة رقيقة على مائدة
 السياسة الخضراء لتغير وجه التاريخ . قد شاء القدر

أن يجلس أخيراً إلى مائدة غداء في مونيخ ، منفرداً
مع كوكب لامع من كواكب الغناء ، وقد خرجت
من بين شفتيه هذه الكلمات :

— إن صوتك لصاف صفاء البلور النقي !

فقالت المغنية الجميلة في ابتسامة ساحرة :

— شكراً

فقال المستشار :

— أنا الذى ينبغى له أن يشكرك

فقالت الغانية فى شيء من العجب :

— على ماذا ؟

— على مجرد وجودك فى الدنيا ، لا أكثر

ولا أقل !

قرأت خبر ما تقدم في إحدى المجلات الأوربية
وقد ختمت المجلة الخبر بقولها : « وقد سافرت
المغنية بعد ذلك إلى باريس ، فأراد هتلر أن يضع
طائرته تحت تصرفها . أترأه قد وقع في الغرام ؟
أى خلاص للبشرية إذا قنع هتلر منذ الآن بمكان
رحب بالقرب من المرأة ! »

وأحب أن أعلق أنا على هذا الخبر بقولى :
أترى المرأة تنتقم دائماً من ذلك العظيم الذى قضى
حياته فى البعد عنها وكرس جهوده لغير التفكير
فيها ؟ أو ترى الرجل العظيم الذى طرح المرأة
من حسابه وأخرجها من حياته يعيش إلى آخر

أيامه قانعاً ناعماً ، أم أنه يشعر خجاة في لحظة من
اللحظات أن امتلاك العالم بأسره لا يعدل أحياناً
امتلاك قلب امرأة ؟ ! .

اذكر اني ما قرأت بعض فقرات من «يوليوس
 قيصر» لشكسبير، الا غمرني حزن حقيقى . قصة
 أخرى اذكر أيضا أنها كانت تترك في نفسى عين
 الأثر : هي رواية فرنسية تسمى «نابليون المسكين»
 للكاتب فرنساى يسمى «برنار زيمر» يصور فيها

الامبراطور سجيناً في جزيرة سانت هيلانة ، وقد
قصت أجنحة هذا النسر الهائل ، وقامت مخالفه ،
وأمسى مخلوقاً بألسا يهزأ به خادمه ويخفى عنه غليونه
الذى يدخن فيه ، وبهمله سجاناه الانجليزى ويدعه
يتقلب طول الليل على مضجع الألم من مرض
أضراسه ، فلا يرحمه ولا يحضر له طبيباً ولا دواء
ويلقبه « بالدب » الذى وضع فى أنفه حلقة من حديد
ويسمح لبعض الزائرين من السائحين أن ينظروا اليه
خلسة من ثقب باب حجرته ، كأنه أسد هرم رابض
فى قفصه بمحديقة الحيوان ، هذا الذى كان وحده يقيم
العروش ويشل العروش . ويدب بحذائه العسكرى
على أديم أوروبا فتهتز لمشيته التيجان على رؤوس

الملك . وكان يقول في صوته الحديدى : أنا وحدى
«أوروبا» ، فتقول له أوروبا كلها ، بل أنت «العالم» .
نعم لا شئ ، يؤلم نفسى مثل رؤية «العظيم» يرى
سقوطه بعينيه ، ومع ذلك لقد احتفظ هذا العظيم
بكبريائه حتى النفس الأخير . فلقد كان يصر على أن
يلقب بالامبراطور ، ولقد خاطبه فى ذلك مرة
حارسه الانجليزى قائلا له :

— امبراطور على من ؟ وامبراطور على ماذا ؟
فلم يجد منه الا تشبشا ، فأذن رفقا به أو
سخرية منه ، وترك له هذا اللقب الذى لا يغنى ولا
يفيد . ولبت هذا البطل المهجور يعيش فى هذه
الجزيرة المهجورة الى أن مات ، لا بين قصف المدافع

ودوى الأبواق ودق الطبول وهتاف العالم من جميع
الأركان . ولكن بين أسكون النسيان ، لا يسمع
جثمانه العظيم غير خادم وسجان ! يا لقسوة القدر ! إن
السماء لتنتقم أحيانا من العظيم الذى يتوهم أنه بأعماله
قد غير وجه العالم ، فتؤخر موته أياما عن
الوقت الذى كان ينبغى فيه أن يموت ، حتى يرى
بعينيه قبل أن تغلقا ، أن العالم بخير لم يتغير فيه شئ ،
بذهابه ، ولم تخف ضحكاته ولم تقف برحيله عجلاته .

١٧

إنَّ حُبَّ الْمَلِكِ « ادوارد » لِيَدِي « سَمْسُون »
 هَزَّ عَصْرَنَا هَزَّةً عَنيفَةً . لَكُنْ « قَلْبُ » الْعَالَمِ كُلِّهِ
 نَبْضٌ مَعَ قَلْبِ الْمَلِكِ . وَهَتَفَ مُتَسَائِلًا : أَلَيْسَ
 لِلْإِنْسَانِ حَقٌّ فِي الْحُبِّ ؟ أَلَيْسَ لِلْمَلِكِ قَلْبٌ ؟
 وَجَوَابِي : إِنَّ لِلْمَلِكِ قَلْبًا وَرَأْسًا . أَمَّا قَلْبُهُ فَهُوَ لَهُ .

وأما رأسه فهو لشعبه . ولا سلطان لأحد على القلب . فان هذا القلب لا يتوج ولا يبدو للناس .
انما الرأس المضى ، بالتاج رمز الحكم والعزة القومية
هو وحده الذى يعنى الناس . هنا يبدو سؤال :
اختيار الملكة التى ستتوج ، أهو من شأن القلب أم
من شأن الرأس . كل الخلاف قائم الآن حول هذه
المسألة . فلنترك الحل للأيام . انما الذى أريد التنبيه
اليه ، هو النتيجة الاجتماعية التى سوف تتبع هذا
الحادث الجلل . ان اشهار هذه القضية على هذا
الوجه فى العالم ، سوف يملأ الأذهان بهذه الكلمة
الجديدة : حق الانسان فى الحب ، وسوف تطفئ
على العالم موجة عاطفية ، حتى نرى الزوجة تهجر

زوجها خلف قلبها . والرجل يئته خلف حبه .
والفتاة ذويها وراء غرامها . فاذا سئل هؤلاء في
ذلك قالوا : هو الحق في الحب . وسوف ينسى
الجميع ، تحت غمرة هذه الموجة ، الكلمة القديمة : أن
الانسان لا يعيش « للحب » وحده ، إنما يعيش
كذلك « للواجب » .

يدهشني في حياة الملكة فكتوريا تلك الارادة
التي استطاعت بها أن تفصل بين « واجبها » كملكة
تحكم ، و « قلبها » كامرأة تحب . انها كانت
مشغوفة بزوجهـا الأمير « ألبرت » ، ومع ذلك
أقصته أول الأمر في قسوة عن دفة الملك وشتون

الحكم ، وهو الرجل الذكى الواسع الاطلاع ، فكانت تدرس هى معضلات الدولة وتتركه هو يقتل الوقت بالقراءة وعزف الموسيقى . (آه ، ما أحوجنى أنا الى مثل هذه المرأة التى تتركنى اقرأ وأكتب وأسمع الموسيقى ، وتنصرف الى حمل المسؤوليات وحل مشا كل العيش ...) . شئ آخر يعجبنى فى تلك الملكة العظيمة : انها كانت تقرأ . انى أحب الملوك والقادة الذين يقرأون . تلك هى الوسيلة التى بها يعرفون حاجات شعبهم . لقد قرأت فكتوريا بعض قصص « ديكنز » التى يصف فيها شقاء الطبقات الفقيرة وأحست وهى فى أبراج قصرها ما يعانىة ألوف من البشر ، يطؤون ظلم أرستقراطية

جائحة بعرباتها الفخمة وخيولها المطهمة . فأدركت
من خلال سطور ذلك الأديب كيف أن في بلادها
علما آخر مهملا يئن من الجوع والبؤس ، ولا يلتفت
اليه أحد . فتركت الملكة الكتاب وقامت صائحة
مرتاعة لا يهدأ لها قرارا حتى مدت يدها الى أولئك
المناكيد فرفعت عن أعناقهم نعال الفئة الباغية ،
وأطلقتهم يعيشون في هواء الحرية والرخاء كما يعيش
الآدميون . في مصر والشرق بنى وبغاة ، وظلم
وظالمون من جميع الأنواع . وفيها كذلك فقر وشقاء
وجهل وظلام في كل ركن من الأركان . ولقد
يسألني سائل أين هو الأديب الذي يصف كل هذا
البلاء ، ويصور هذه الدنيا التعسة المهمل التي لم تمتد

اليها يد اصلاح منذ أجيال ؟؟ جوابي عن هذا
السؤال بسيط : هات لي من يقرأ ، أحضر لك
من يكتب . ان الطاهي لا يوجد الا اذا وجد
الآكلون . ان الشرق لن يتغير حتى يعلم قاداته
كيف يملئون أدمغتهم بكل ما يمكنهم من فهم حال
شعوبهم . ان ربان السفينة لا يركب البحر قبل أن
يعرف بعض أسرار الرياح والماء ونجوم السماء .
فلنرج دائما ممن يمسك بالزمام أن يمسك أيضا
بالكتاب .

« كل شيء يزدهر في مملكة تتمزج فيها مصلحة
الشعب بمصلحة الملك » تلك كلمة قالها « لابروير »
في كتابه « الأخلاق » تقابلها كلمة أخرى في كتاب
للهند عن رجل دخل على مليكه فقال له : « أيها الملك
إن بقاءنا موصول ببقائك . وأنفسنا متعلقة

بنفسك . . » وضعتى هذه الأقوال لحظة موضع
التأمل وقلت فى نفسى ان هذه النظرة الى « الملك »
لا يمكن أن تكون وليدة الأوضاع الاجتماعية
وحدها أو المبادئ السياسية أو العقائد الدينية .
فالشرق والغرب لا يتفقان هكذا الا على شىء يخرج
من نبع طبيعتنا الانسانية . ان الشعوب منذ فجر
حياتها كانت دائما ترى الأمة هى الجسم والملك هو
« الرأس » بمعناها الطبيعى « الفسيولوجى » . هذا
صحيح لا ريب فيه والملك هو الحاكم المطلق فى نظام
الملوكية المطلقة . أما والأمة فى النظم الديموقراطية
هى التى تتولى الحكم فن الحق أن نتساءل عن صحة
تلك النظرة القديمة . قليل من التأمل يهديننا الى

هذه النتيجة : أن الأمم في شبابها كالفتى ، تغرى عقله كل مظاهر القوة وتسيطر على رأسه كل أحلام الفتوة ، فهي تجمع كل السلطة لتعطيها ذلك الحاكم المطلق الذى يدير كيانها ويحرك جسمها ويهز عضلاتها ، الى أن تمضى أيام الصبا وفورة الشباب وتدخل الأمة فى طور الرجولة والاستقرار ، فتحزم أمورها المادية بنفسها ، وتترك ملكها يشغل بما يشغل به الرأس الحقيقى من شئون الفكر ومسائل الثقافة . وهنا نرى الملك فى الشعوب الديموقراطية قد انصرف عن وظيفة الحكم المادى الى وظيفة أخرى تشبه وظيفة الرأس فى جسم الانسان المفكر فينقطع هو الى التوجيه الفكرى لأُمَّته وتشجيع

العلوم والآداب والفنون وختم كل مظاهر النشاط
الأدبي والمادي في الدولة بطابع الحضارة . فلملك في
كل زمان ومكان هو الرأس دائماً ، على أنه في الأمة
الفتية رأس فتي ، وفي الأمة العريقة رأس رجل .

كل شيء أمامي في الريف يرتل نشيد السلام .
فشجيرات الفول الخضراء ترقص مع النسيم ، وترسل
في الفضاء من حولي أريج زهرها الأبيض كما ترسل
القبيلات المعطرة . والبقرة ذات الأهداب الشقراء
تتمطي في أشعة الشمس كأنها حسناء تستيقظ في

فراش دافىء . والكلب رابض قد انغمض عيناً وفتح
أخرى تلقى على الكائنات نظرات الرضا والصفاء .
والدواجن والهوام والأرض السمراء وجداول الماء ،
كلها بأصواتها الصغيرة وأزيزها اللطيف وصمتها
الدائم وخبرها الهامس تتراعى للمتأمل كأنها تتبادل
حواراً خفياً مفعماً بكلمات الود والحب والأخاء
الأبدى ، وكأنها جميعاً فى حركتها وسكونها جوقة
موسيقية تخضع ليد غير منظورة كى توقع لحناً
متناسقاً أزلياً لا يسمعه غير الأنبياء والشعراء .

صوت واحد نشز فى أذنى عن هذه المجموعة :
هو صوت الانسان . متى ظهر ظهرت معه
الفوضى ، ونشأ الخلاف حيث لا ينبغى أن يكون

خلاف . تلك طبيعته . وقد تكون تلك أيضاً
عبقريته .

جاس إلى رجلان لا يختلفان في الزى ولا في اللغة
ولا في اللهجة . لكن سرعان ما سمعت أحدهما
يقول لصاحبه :

- أنت فلاح . أما أنا فعربي .

فعنيت بالأمر ، وبادرت أسأل الرجل السؤال
الذي طالما ألقيته في مثل هذا الظرف :

- وما الفرق بين الفلاح والعربي ؟

فأجاب الرجل بذلك الجواب الذي سمعته كثيراً
في مثل هذا الموضع : مروءة العربي وشجاعته
وشهامته وإكرامه الضيف وحمايته الجار . ثم ...

ثم شرف النسب . لم يدهشنى ذلك ولكن الذى
أدهشنى حقيقة ، وقد لا يصدقنى البعض إذا ذكرته
هو أن هذا الرجل غير المتعلم قد أشار إلى صاحبه
وقال :

— أما جماعة الفلاحين فما هم إلا أولاد توت

عنخ آمون !

عجباً ! إذن منشأ الخلاف بين العروبة والفرعونية

ليس أدمغة المفكرين والمثقفين . إنما هو فى الريف

وفى قلوب ساكنيه !

فكرة الضحية واهراق الدم قربانا للمعبود لم
 تزل باقية الى اليوم . فالوثنية قد خلفت تقاليد لم
 يكن محوها من اليسير . إن ذبح الخروف في العيد
 الكبير ان هو الا ظل باهت لتلك العهد التي كان
 يدفع فيها الآدمي للذبح عند أقدام الهياكل . ولكن

الزمن غير الشكل ولم يغير المبدأ . ان الانسانية في
تطورها لا تمحو شيئاً غرس في طبيعة الانسان من
قديم . ولكنها تبدل في لونه وطلائه ، وتعديل في
ملاحه ، وتكسوه ثياباً أخرى ، وتسميه اسماً جديداً
يتفق مع روح العصر الجديد . فالانسان لا يتغير .
انما هو يغير ريشه كالطيور ، وجلده كالشعابين . ولم
يغب ذلك عن حكمة الأديان . فهي في تعاقبها لم
تنسخ كل ما رسخ من عقائد الانسان . ولكنها
أخذت أكثر هذه العقائد بالرفق . فهدبت من
وسائلها وغاياتها . فالضحية الآدمية جعلتها ضحية من
الحيوان ، والغاية منها وقد كانت ارضاء المعبود وحده ،
حولتها الى ارضاء الله بارضاء الفقير في يوم العيد .

هنالك شيء ينبغي أن نتدبره اذا أردنا أحداث
انقلاب في حياة البشر . الحذر كل الحذر من أن
نقتلع شيئاً من جذوره . فإن ما نبت في قلب البشرية
لا يقتلع . انما نحن نستطيع دائماً أن نهذب ذلك
الغرس وأن نميل به الى حيث تريد ريحنا . وأن نبذل
بما نشتهي ألوان أزهاره وثماره ، وأن نولد منه أقوى
الأشجار ، وهكذا نخرج للحياة مما كان وعلى أساس
ما كان ، ذلك الذي يقول فيه الناس إن عين الشمس
لم تره . آه ، ما أصدق تلك الكلمة : لا جديد تحت
الشمس . نعم . ان يد « الطبيعة » لا تبرز جديداً
ولا تमित قديماً . ولا تمحو من الوجود . ولكنها
تعديل وتبدل في الوجود . فلنتذكر دائماً ان لا شيء

ينعدم في الطبيعة . وليست « المادة » وحدها هي التي
لا تنعدم ، كما يقول الكيميائيون . كل شيء لا
ينعدم في هذا الوجود . إن الطبيعة لا تعرف كلمة
« العدم » ولكنها تعرف كلمة « التحول » .
ذلك أسلوب الخالق الأزلي !!

إني أتجنب دائماً رؤية خروف العيد حياً قبل
 العيد ، وأتخاشى أن أدنو منه أو ألاطفه أو أعقد
 بيني وبينه أو أواصر صحبة أو مودة ، خشية أن تمضي
 ساعات فإذا هو أمامي مشوياً في طبق ، ينظر إلى
 بعينين يسيل منهما الدهن والزبد ، نظرات كلها

ازدراء لما تكشف له من خلقنا الانسانى المنطوى على
الخيانة والغدر ! إني أتخيل دائماً معاني هذه النظرات
الهائلة العميقة التي تنبعث من عيون هذه الحيوانات
الوادعة الأليفة . إنها لا تبلغ في إنسانيتها أحياناً
من بعض نظراتنا الآدمية ، التي يشع منها بريق جشع
حيوانى ، ونهم مفترس ، قد لا تعرفه غير الضواري
والكواسر !

إني لا أتخيل الحديث الذي يمكن أن يدور بيني
وبين هذا الخروف لو أنه منح القدرة على الكلام :

— لماذا صنعتكم بي هذا ؟

— لمجدك الأبدى

— مجدى الأبدى ! هذا الذبح والسائح والحرق

مرة في كل عام على مدى الدهور والأيام !

- نعم ، هو مجدك الذي ينبغي أن تتباه به

وتفخر وترهى على غيرك من الحيوان ! إن دمك

يراق من أجل فكرة ، وحياتك تضحي في سبيل

عقيدة !

- آه للإنسان ما أبرعه في إلباس صغير الفعّال

رائع الثياب !

- نعم ، هنا مفتاح سمونا وسر عظمتنا !

- هنا الفرق بيننا وبينكم .

- نعم ، كل الفرق .

- إن الفرائز السفلى ما زالت هي الناموس

الأعظم لنا ولكم . ولم تستطيعوا مع قدرتكم وقوتكم

أن تخرجوا عن نطاقها قيد أنملة . . .

- ولن نخرج .

- إنما كل عملكم أن تضعوا على حقائقها

العارية رداء ، كما وضعتم على أجسامكم العارية لباساً .

نحن العارون جسداً وروحاً ، وأنتم الكاسنون جسداً

وروحاً . أما بعد ذلك فلا اختلاف بيننا وبينكم .

- هذا صحيح يا سيدي الخروف !

حدث في الأسبوع الماضى أمر أحب أن
أسجله هنا : هو قيام القيامة فى الجامعة ضد كتاين
قيمين ، لأنه قد ورد فيها طعن فى الاسلام .
لا أريد أن أنظر إلى الأمر من ناحية التفكير
الحر ، ولا من حيث تأثير هذا الموقف فى الحياة

العقلية لبلد متحضر . ولكنى أريد أن أبحث المسألة من
جهة الدين نفسه . وهنا يبدو لى العجب : لماذا كل
هذا الفزع كلما وقع بصرنا على عبارة تمس الاسلام ؟
إن الكتب التى عالجت المسيحية وتعرضت للمسيح
بالطعن والتجريح تطبع وتشر فى أوروبا المسيحية
دون أن يخشى أحد على كيان المسيحية . ذلك أن
الجميع يعلمون أن الأوان قد فات للخوف من مثل
هذه الصيحات ، وأن المسيحية التى عاشت عشرين
قرناً لا يهدمها عشرون كتاباً . كذلك نستطيع أن
نقول فى الاسلام . إن هذا الدين المتين الذى عمر نحو
أربعة عشر قرناً وثبت لأحداث الزمان ، وشاهد دولا
تدول وعروشاً تزول وشعوباً تولد وامبراطوريات

تقام ، لا يمكن أن يتعرض للخطر أمام كتاب يؤلف
أو عبارات تقال . إن هذا الفزع منالأ كبر مسبة
لدين عريق عميق . كذلك يدهشني أن ينشأ هذا
الفزع في جامعة عصرية ، يؤمها شباب قد قطع مراحل
الطفولة والعصبا الأولى وانفرست في قلبه العقيدة
الحارة ، فلا خوف الآن عليه من مناقشة المسائل
العقلية في جو الحرية .

إنني أعتقد دائماً أن صحة العقل وصحة العقيدة
كصحة الجسم ، لا بد لها من الهواء الطلق حتى
تكتسب المناعة . وأن حبس العقيدة والعقل في قفص
من الزجاج ، خوفاً عليهما من خطرات النسيم ، معناه
إنشاؤهما على بنية عليلة وكيان سقيم .

كلما ارتقى فكر أمة انصرفت إلى إتقان الصناعة
وحذق الوسائل الفنية ، وشعرت في الحال بافتقارها
إلى المواد الأولية . فالصناعة غول فاجر فاه يريد أن
يلقف أكبر مقدار من المادة ليحولها إلى خلق جديد
له وزن وثمن . أما الأمم العادية فهي مشغولة في

أغلب الأحيان بانتاج المادة الخام .

كذلك الحال في دولة الأدب والفن . فان
الأديب أو الفنان قبل أن يصل إلى مرحلة الانقطاع
للفن والصناعة يكون شأنه شأن عامة الأفراد :
يعيش الحياة المفعمة بشتى الحوادث ، الزاخرة بألوان
المادة الصالحة ، حتى يدعو الفن إلى سمائه ، فاذا هو
يرى أن حذق أساليب الفن وإتقان أسباب الصناعة
أمر لا بدله من تكريس حياة بأكملها . فاذا هو
قد انصرف عن حياة الناس العادية بما فيها من وقائع
هامية وتافهة وأحداث هائلة أو حقيرة ، وانعزل في
شبهه « معمل » فنى أو مصنع فكري يجود فيه
وسائله ليملك ناصية ملكاته ، إلى أن يحس من نفسه

أنه قد قطع في هذا السبيل شوطاً كبيراً وأنه قد
غدا صاحب صناعة . فيلتفت ، فإذا أيامه التي قضاها
في مصنع الفن قد فصلته عن الحياة الرحبة الصاخبة
الزاهرة ، وإذا حياته الآن فارغة إلا من جواهر
الفكر ولباب التأمل وتجارب الصناعة القامية
أو الفنية . وإذا هو محتاج لاستعمال فنه وصناعته
إلى مواد أولية لا يدري من أين يأتي بها : لذلك
يرجع أحيانا إلى حوادث الماضي فينسج من ذكرياته تلك
الأثواب الجميلة التي تخرج عن مصنع فكره وفنه .
لقد لاحظ ذلك مرة شارلز ديكنز فقال وهو في
سن الستين :

« إنى دائماً أتغذى وأغذى قصصى ومؤلفاتي

بذكریات الطفولة والصبا !
ما الأديب ذو الصناعة إذن إلهادولة صناعية فى
حاجة دائمة إلى المواد الأولية .

« هل كانت علومك المدرسية ذات أثر فعال
في اظهار مواهبك الأدبية ؟ » هذا السؤال القته
مجلة أدبية فرنسية على الروائى دورجليس فأجاب :
« إن الرجل الذى يهجم على الأدب وهو مزود
بتكوينه المدرسى وحده لا يمكن أن يكون غير كاتب

ضعيف » . وقال الشاعر بول فاليري في مثل هذا
المقام : « إن أساتذتي في المدرسة كانت لهم عن
الأدب فكرة تدعو الى الرثاء . يخيّل الى أن الغباء
وفقر الذهن وبلادة الشعور وضعف التصور وانعدام
الخيال مواد مقررة رسمياً في المناهج الدراسية ! »
لو سئلت أنا أيضاً لما خرجت اجابتي عن هذا
المعنى . فلقد فعلت المدرسة كل شيء لتنفّرني من
الأدب ، وتخيفني من اللغة . فوضعت بين يدي اسمعج
الكتب العربية معنى وفكراً ، وأعسرها لغة وأسلوباً
وأبعدها عن مخاطبة النفس المتفتحة لجمال الخليقة .
لقد علمتني المدرسة كراهية الشعر العربي . وقد
لبثت زمناً لا أطيق الاضغاء الى بيت واحد من

ذلك الشعر السخيف الذى ارغمنا على حفظه ارغاما .
شعر ليس فيه قطرة من ماء الشاعرية . انما هو ضرب
من تلك الحكم والمواعظ المنظومة التى لا كتبها
الالسن ومضغتها الأفواه حتى أصبحت «تفلا» جافا
لا نفع فيه . تلك هى مادة غذائنا الذهنى . أما اذا
اجتهدنا فقرأنا كلاما جميلا خارج المدرسة فانا لن
نلقى من المعلم غير التجهم والاستنكار .
وأذكر أن الأدب الانجليزى اوحى الى كتابة
قصة تمثيلية صغيرة وأنا فى المدرسة الثانوية فرفعتها
نخورا الى مدرس الأدب العربى ، فكان جزائى
الاهمال المهين . على أن من الانصاف أن أذكر أن
معلمنا شجاعا تجرأ يوما فأطاعنا على أبيات عذبة رائعة

للعباس بن الاحنف فأشرقت وجوهنا وانطلقت من
قلوبنا آهة العصفور الذي أفلت من قفص وحق
في فضاء الطبيعة الباسمة الجميلة . فارتعد المدرس
المسكين والتفت الى باب القاعة خائفاً ، كأنه اقترف
جرماً هائلاً . منذ ذلك اليوم أدركت أن هنالك
كنوزاً في عالم الأدب والشعر يخفونها عن عيوننا
المتطلعة .

سألني أديب : ما هو الأدب المصري ؟
 فقلت : ليس من السهل على الكلام في الأدب
 المصري . ولئن كنت قد فهمته ذات يوم على وجه
 من الوجوه ، فاني الآن أريد أن أفهمه على وجه
 جديد ، وأن أسير في طريق آخر . ان الفن في

رأيتي كالعلم . لذته في إحداث التجارب . وما أحسب
اني اصنع في الأدب والفن غير مجرد تجارب قد لا
تؤدي الى شيء . فاذا كنت جئت تلتهمس عندي
رأيا قديما في الأدب المصري فانك قد وقعت اليوم
على رجل لن يقول لك ما أردت أن تسمع منه .
انك تطالب الى أن أقنعك وأقنع الناس برأى .
ولكن أنا نفسي أريد أن أقنع .

عقيدتي أن الأدب لا يتحدد معناه بالكلام ،
انما يتحدد بالعمل . ان معالجتى مختلف الاساليب من
عالم تارة ومن فصيح تارة أخرى ، وتنقل بين
قوالب شتى في القصص التمثيلي والمرسل ، وأنواع
كثيرة من جد وهزل ، لا يمكن أن يفسر بشيء الا

انه بحث طويل عن ذلك الاقتناع الذى تسألنى عنه .
ان اولئك الذين انتقدوا استعمالى بعض الأساليب
لم يدركوا أن هذا كان مجرد البحث وأن هذا لا يعنى
التمسك والدفاع عن أسلوب بعينه . انى الآن على
الأخص بعيد كل البعد عن الاعتراف بكل تلك
الأساليب . انى فى حاجة الى أن أهدم دائماً ما أضع
لأعيد التجربة من جديد . انك تحسبنى أبالغ . ولكنى
أضع بين يديك المعضلة حتى تتبين مرعى هذا الكلام
ان الأدب المصرى مرآة صافية لهذا البلد يصور
أرضه وحياته وأهله . هكذا يقول بعض الأدباء
وليس هنا موضوع القضية . انما المسألة : كيف
نصور حياتنا ؟ بأى الوسائل وأى الأساليب ؟

أنستجلب وسائلنا من الغرب ومستحدثاته وما وصل
إليه بعد جد وكد وتجارب ؟ أم نتخذ وسائل الشرق
بعد أن نضعها موضع البحث ونجرى عليها التجارب
حتى نخرج منها قوالب جديدة تستطيع أن تسمع في
الغرب وتؤثر فيه كما أثر فيه القالب الشعري
« الرباعيات » ؟ ان الذين يريدون وسائل الغرب
ينادون بالقصة . ولا بأس في ذلك ، لأن القصة
أيضا خلق شرق قبل أن تكون في أدب الغرب .
انما الكلام : أنرجع بالقصة الى منابعها الأولى في
الشرق ومن ثم نجرى عليها الاعمال ونفرع منها
الأشكال ؟ أم نقبل من دون جدال ما أدخله الغرب
عليها من تجديد ؟

جوابي على مثل هذه الأسئلة الآن لا فائدة
فيه . اني كما ذكرت ينبغي أن أجيب بطريقة أخرى : ان
اغرق زمنا في الكتب القديمة وأن أمسك بالقلم وأن
اكتب صفحات لا عدد لها ، تمزق آخر الأمر ولا
يبقى منها غير وريقات قليلة أنظر فيها كي أقول لك
بعدها ان التجربة الهمتني الجواب .

تمرّني في الحياة لحظات أود فيها لو أسأل الله
 أن يفك أجزائي ويعيد بنائي ، طبقا لشروط أخرى
 و«مواصفات» جديدة كما يقال في لغة أهل العمارة
 والهندسة ولكن .. سرعان ما أذكر كلمة «باسكال» .
 «لو أن أنف كليوباترا كان أكبر قليلا مما كان لتغير

وجه التاريخ » . هذا صحيح . ومن يدري . لعل
قائلا يقول في أمرى غدا : « لو ان انفه كان اصغر
قليلا مما كان لتغير وجه الأدب العربى الحديث » .
ولكن الواقع الذى اوقف به ان تركيب الانسان
كتركيب العقاقير . فقليل من « السلامكى » على
قليل من الشمر والينسون ينتج « ملينا » للأعضاء .
كذلك حياة كحياتى مع قليل من ميولى وقليل من
مطالعانى ... ينتج أدبا كأدبى ... فكيف اذن
يغير الله بعض عناصر تركيبى دون أن تتغير النتيجة
كل التغيير . وما الذى يحمله على ذلك ، الا رغبى .
ومتى كنا نخلق طبقا لرغباتنا . لقد قرأت يوما كلمة
عنى فى احدى الصحف يقول فيها كاتبها : « انه

يريد ان يعيش لفنه ولفنه فقط . فابتسمت وقلت :
« أنا أريد » ؟ وهل لانسان الحق في أن « يريد » ؟
لو انى اردت ان اعيش لشيء آخر غير فنى لما
استطعت . كلمة « أريد » تبدو ساذجة مضحكة من
أفواه البشر وهم في حضرة « القدر » . انا لا اريد
لانى لا استطيع ان أريد . ما انا الا تركيب كيمائى
مثل ذلك « الملين » ، لا بد له « بهذه العناصر مجتمعة »
ان ينتج هذا « المفعول » الذى يسمونه « الفن »
او « الأدب » .

لا فرق فى نظر « الطبيعة » بين « النحلة »
و « الأديب » . كلاهما مخلوق يتنقل بين أزهار لينتج
عسلا آخر النهار . ومن هذه « المادة » الحلوة يصنع

احدهما بناء فصيلته ويقيم الآخر بناء أمته . ولو
سئلت « نحلة » عن رأيها فيما تفعل لما وجدنا عندها
رأيا ولا ارادة انما هي تفعل ما تفعل بدافع من
تركيبها « البيولوجى » . كذلك « الأديب » مدفوع
الى التفكير والاتساج بحكم هذا التركيب . ولطالما
تفجرت نائرا : « لماذا ولمن اقتل نفسى بهذا العمل
المضنى » ؟ فاسمع الجواب من اعماق : « انك لا تنتج
شئ ، ولا لأحد ، ولكن ... لانك لا تستطيع ان
تفعل غير ذلك .. ما أنت الا نحلة تفرز « الأدب »
شاءت أو كرهت ..

٢٨

لبعض القراء ملاحظات تدل أحيانا على جهل
 بطبيعة الأدب . من ذلك أن يعيبوا على الأديب
 تحدثه عن نفسه . أمثال هؤلاء القراء لا بد أن
 يكونوا من تلاميذ المدارس او المتخرجين فيها حديثا .
 فهم يخلطون بين « معلم المدرسة » وبين « الأديب »

الفنان . فمهمة « المعلم » الأولى ان يلتن اصول
المعارف وان يفرغ في اذهان النشء مادة بعينها بغير
ان يكون لشخصه دخل في الأمر . أما « الأديب »
او الفنان « فلا يلتن شيئاً ولا ينبغي له . لأنه
يخطب قوما مفروضاً انهم قد جاوزوا مراحل
الدرس ، فهو يخرج لهم عصارة العلوم والمعارف
والتجارب مقطرة من خلال « نفسه » ان كل
ما نطلبه ونرجوه من رجال الأدب والفن أن يحدثونا
عن كل حاجة من حاجات نفوسهم ، وكل دقيقة من
دقائق حياتهم وكل لحظة من لحظات ابصارهم ، وكل
ناحية من نواحي احساسهم . ان « نفس » الأديب
العارية هي كل ما ينبغي ان يضعه تحت انظارنا .

ومن لم يفعل ذلك فليس مطلقا بأديب . فالأديب
هو الآدمي الوحيد الذي خلق لكي يفتح لنا نفسه
لنرى من خلالها النفس البشرية قاطبة . ويتحدث إلينا
عن نفسه فنرى من خلال حديثه كل تجارب
الإنسانية الشاعرة . وإن كل رجال الأدب العظيم
ليسوا إلا آدميين حدثونا طول حياتهم عن أنفسهم .
بوسائل شتى . وأنا كقارىء لا يروقنى شيء مثل
قراءة المذكرات التى يكتبها الأدباء والعظماء عن
حياتهم الخاصة . والخطابات والرسائل التى تتناول
مسائل تمس أشخاصهم . فنحن فى تلك الكتابات
المجردة عن أثواب التكلف والصناعة نستطيع أن
نهبط إلى أغوار تلك النفوس الرحبة الغنية . كما يهبط

الغواص فجأة الى اعماق البحار ، فيفاجئ ، اللائى ،
فى اصداقها لم تمسها بعد يد غريبة ، تنزعها لتدخل
عليها زيف الصياغ . ان الفنان اذ يحدثنا عن نفسه
وفنه وحياته الخاصة انما يقدم لنا مادة فنية غير
مصنوعة ، انما يترك رداءه الرسمى ليخرج الينا بشباب
البيت ، فى غير كلفة كأنه صديق . وهذا منتهى
الاخلاص منه ومنتهى التكريم لنا .

ها أنذا أهبط الى برجى العاجى مع الشتاء .
 فى الوقت الذى يهبط فيه «الأبنويل» مع عيد الميلاد .
 انى أرى لحيته الطويلة البيضاء تمتد حول الكوكب
 الأرضى . لقد كان طرفها بالأمس فى بلاد الجليد
 فاذا هى اليوم فى بلاد الشمس والهلال . لقد طفت

بالمدينة فرأيت عجبا . لقد انقلبت القاهرة رأسا على
عقب . أنوار وأعلام وزينات وأفراح . والناس جميعا
مشغولون بأعداد سهرات العيد . والمسلمون قبل
المسيحيين . والشرقيون قبل الغربيين . يتسابقون
الى الاحتفال بعيد ليس عيدهم . ولكنهم يريدون
تقليد الأجانب . بل انى لأعرف بيوتا وأسرا شرقية
مسامة تقيم فى منازلها « شجرة الميلاد » اسوة
بالأوربيين . نعم ، لقد ذهبت أعياد الشرق . فلم
يعد أحد يأبه لعيد الأضحى أو الهجرة أو لىالى
رمضان . ان اعيادنا تقبل علينا فلا نبسم لها ولا
نتأهب ولا نخرج لاستقبالها ، انما نجس أنفسنا
فى بيوتنا كأننا نخجل منها ومن أنفسنا فاذا جاءت

أعياد الأجانب أسرعنا خرجنا لها باشين مهلين .
نحن في بلادنا نشارك الاجنبي في أعياده وهو على
أرضنا لا يشاركنا في أعيادنا . وبذلك أفهمنا
الأجنبي وعلمنا أننا وأطفالنا منذ الصغر ازدراء ما
هو شرق واحترام ما هو غربى . وهكذا أثبتنا للعالم
ان مجرد وطء أقدام الاوربي أرضنا كاف ان يزلزل
حصوننا المغنوية . نعم . لقد كان الغربى يخطر على
باله كل شىء الا أن الشرق ينبذ من أجله حتى أفراحه
الشرقية التاريخية العريقة بألوانها الزاهية وطابعها
الأصيل . انى ليخيل الى أن الغربى ذاته ، ذلك
الضنين بتقاليده ، الحريص على تجميل خرافاته ،
يدهش لرؤيته وجه الشرق قد انطمست ملامحه بهذه

السهولة وضاعت معالمه من الرؤوس والنفوس وزال
رسمه الحقيقي ، الا من تلك الصفحات الرائعات التي
سطرها أمثال بيير لوتي وجيراردى نرفال من
الأوربيين انفسهم ، الذين أعجبوا بالشرق يوم كان الشرق
يحتفظ برداء شخصيته ، فلا يخلعه ليجرى عاريا كالشحاذ
خلف الغرب . انى لم أرقط باعتننا المتجولين
يصيحون « بعرائس مولد النبي » فى الطرقات ولكنهم
صاحوا البارحة بنداء شق الفضاء « الأب نويل
بقرش أبيض . الأب نويل بقرش أبيض » وبهذا
تم لذى اللحية البيضاء غزو الشرق !

٣٠

سألني من أيام مؤلف من المؤلفين عن فكرة
غريبة قال انها جالت بخاطره :

« ترى ماذا يفعل الانسان اذا علم أنه سيموت

بعد عام ؟ »

فقلت له :

— الجواب يتوقف على معرفة نوع هذا الانسان وطبيعته وعمله .

فقال :

— انا وانت مثلا . ماذا كنا نصنع ؟

فأجبتة على الفور :

— انا وانت ؟ كنا نكذب في الحال على التأليف والكتابة ليل نهار .

فقال في دهشة :

— كنت أحسبك تقول العكس . وترى ان

قرب الموت قد يجعلنا نطلق العمل ونفزع الى جيعاة اللهو والمتعة أو على الأقل حياة الهدوء والراحة .

— نحن يا صاحبي نفعل ما يفعله كل أب بار .

فما الذى يصنعه الأب البار بأبنائه حينما يدنو منه الموت ؟ ألا يتمنى أن يتركهم وقد اكتمل نضجهم ،
ألا يفكر ليل نهار فى اتمام تربية هذه الأكبادة حتى
تقوى على المشى فوق الأرض ؟ وانا وانت لسنا
أكثر من آباء ، لنا أكباد تمشى ، لا على الارض ..
لكن على الورق .. فكيف نموت وفى خزائن أحدنا
صفحات من كتاب لم يكتمل . وعلى مكتب الآخر
قصص تعج بأشخاص نصف أحياء يطالبون بحقهم
فى الحياة ، ويمسكون بتلابيب « مؤلفهم » لا يدعونه
يموت قبل أن ينفخ فيهم بعض الروح ! إنه ليخيل
الى أحيانا أن حياتنا متصلة بحياة انتاجنا وان فى
اعماق كل « خلاق » شبه غريزة داخلية تدفعه الى

الانتاج البطيء أو السريع تبعاً لطول حياته أو
قصرها . انا قد بعنا أنفسنا لـ« الشيطان » التآليف
ولن يتركنا هذا « الشيطان » في راحة الا عند ما
نلفظ النفس الأخير .

يقع لي أحياناً أن أهبط محلاً عاماً فيتقدم إليّ
شخص لا أعرفه ، يحينني تحية رقيقة ويقول : «أحد
قرائك المعجبين » ثم يمضي دون أن يزيد . ويحدث لي
دائماً في كل عيد أن أفض البريد فأجد بطاقات التمنيات
ورسائل التهاني كأنها باقات الورد من قراء كرام لم

تبصرهم عيني ولم يروني إلا فكرة تعيش في سياج
السطور على أديم الصفحات .

هنا معنى الاتصال الروحي ، ارفع الوان
الاتصال ، واسمى انواع المشاعر . وإني ليملؤني العجب
حيناً ، ويداخلني الزهو أحياناً إذ أجد في الشرق
مثل هؤلاء القراء !

لكن مهلاً ... فيم العجب ؟ ألسنا القائلين
إن الشرق هو قلب « الروحانية » النابض ؟

إنما المدهش حقاً هو أن نرى قراء الغرب
يبعثون كل صباح ملايين الرسائل إلى كتابهم
المحبوبين ! نعم أين هذا الاتصال الروحي من ذاك !
إذا قلنا إن الفرق في عدد القراء وانتشار الأمية أو

التعليم هو السبب ، لكذبتنا الأرقام والنسب ،
ولتبين لنا آخر الأمر أن الشرق متخلف في هذا المضمار
على كل حال .

إن عيب الشرق هو « الكسل » . والقارىء
الشرقى على وجه عام رخو المزاج فاقد النشاط . إنه
يطالع وتتأثر نفسه ويفتح قلبه ، ثم لا يلبث أن
يتشاءب ويلقى الكتاب وينسى المؤلف وتحمد فيه
الجنوة . ثم هو بعد ذلك كثير الإهمال قليل
الاكتراث . فأين القوة الداخلية التى تدفعه إلى
طلب الاتصال بذلك الروح الذى أنس إليه ؟

إنه « يستهلك » مادة الكتاب مثما يستهلك
مادة الطعام ، دون أن يلقى بالا إلى الطاهى الذى أعده

لمأثدته . وهكذا يتكشف الأمر عن هذه النتيجة
العجيبة :

إن روحانية الشرق قد هبط بها « كسل النفس »
إلى المادية ، وإن مادية الغرب قد ارتفع بها « تيقظ
النفس » إلى الروحانية !

إن الحرب المستعرة المستترة داخل نفسى منذ
ولدت ، تلك الحرب التى لم تعرف يوماً الهدنة ولا
السلام ، جعلت منى رجل كفاح ، دون أن أشعر
أو أريد . انى لم أذق قط طعم الاطمئنان . انى لم
انعم قط براحة الاستقرار . لكأنى دائماً أمتطى

ظهر جنىّ ، واركض خلف صيد وهمي . ليس في
الأرض حد يقف عنده ركضى . ماذا أريد ؟ وماذا
يراد مني ؟ لست أدري . إنه كفاح داخلي أئخذ
نفسى بالجراح . لكان القدر أراد إنشاء روحى على
احتمال الطعنات . ففوة الروح هى فى طاقتها هضم
الأم ، كما تهضم المعدة القوية بعض السم فى الدم .
إن الرجل القوى ليس ذلك الصحيح الذى يعيش
بمنجى عن مرمى السهام . بل هو ذلك الجريح الذى
يتأق بجسده النصال من كل مكان ، ويبقى جامدا
صامدا . كان الأنبياء والعظماء من هذا الطراز . إن
منظر النبى محمد وقد حشا الناس على رأسه التراب ،
ومنظر المسيح وقد توجه بأكليل الشوك ، ليملاؤنى

إيماناً بأن العظمة هي في الكفاح ، وأن أروع
الكفاح هو كفاح النفس في سبيل احتمالها للضربات
في صبر وابتسام . لقد أصابني ما يدمي من سهام
الأقلام . ولكنني كنت أقول في نفسي : « إني
إذن حي ، فالكاتب الحي هو الذي ينهش كاللحم
الحي ، لأن الجيف لا تطعن ولا تنهش ، وما دمت
حيّاً ، فلا شيء في الأرض يمنعني من الركض على
جواد الكفاح » ! ...

كنت أشكو ذات يوم عسرا في الهضم وقلة
 في النوم ، وأضيق ذرعا بالأدب والأدباء ، وإذا
 زائر أديب يباح في طلب رؤيتي ولا يريد أن ينصرف
 حتى يحجب إلى ما طلب ، وعلمت أنه ممن لم يسبق
 لهم أن رأوني ، فخطر لي خاطر سريع . ناديت تابعا

لى وأجلسته الى مكنتى وطلبت الىه أن يقابل الزائر
باسمى ، وانتحيت جانبا اقرأ احدى الصحف . ولم يلبث
الزائر أن دخل وسلم على تابعى فى احترام قائلا :

- يا أستاذ ، إنى سعيد جدا إذ استطعت أن
أراك ، فأنا من قرائك المدمنين ، اقتنيت كل
كتبك ، وطلما رسمت لك فى مخيلتى صورة أراها
الآن طبق الأصل .. فالحمد لله لم يخب ظنى فى شىء ،
انى اراك الآن كما تخيلتك من بين سطورك .

فطرحت من يدى الصحيفة ونظرت إلى الرجل
محملاً . أهذا الرجل جاد صادق ؟؟ لا شك عندى
فى ذلك ، فكلامه مفعم بالحرارة والاخلاص ،
ولكن كيف انطبقت الصورة « طبق الأصل » على

غير الأصل بهذه السهولة؟ وجعل هذا الزائر يكثر من
ترديد اسمي ويسبغه في اقتناع على سكرتيري الجالس
الى مكنتي ، فشعرت بخلاجة من شك هزت نفسي .
ماذا بقي مني اذن ؟ هذا هو « توفيق الحكيم » الى
مكتبه كما يعتقد الآن هذا الزائر ، وتلك صورته
كما ظهرت له من بين السطور . أما أنا فشيء لا علاقة
له بهذا الرجل ولا بما قرأ . اسمي قد انفصل عني
وانتزع مني تلك اللحظة كما تنتزع الامضاء عن
« الكمبيالة » ! وما أنا في تلك الساعة الا كتلة من
لحم ودم ملقاة على مقعد . وقد خيل إلى أن لفظ
« توفيق الحكيم » ليس أكثر من علامة أو « ماركة »
توضع فوق كتب مثل ماركة « الفابريكة » فوق عاب

« الساردين » . ان بعض « الاسماء » لتتخذ لها
أحيانا حياة مستقلة عن أصحابها . وهذا « الاسم »
هو وحده الذى يباع ويشترى فى سوق الكتب
والوراقين ، ولدى الصحف والمجلات ، أما الشخص
فقد لا يعنى أمره كثيرا من الناس . ولأول مرة
أدركت انى غير موجود فى نظر الجمهور باعتبارى
« شخصية آدمية » . انما الذى يعاملونه هو « الشخصية
المعنوية » . فثلى فى ذلك اذن مثل شركة « النور »
و « الغاز » و « المياه » !!

٣٤

في حياتي الفنية جانب مجهول أردت ألا أعترف
به ورأيت أن أقصيه وأن أسدل عليه الستار ، لأنه
في نظري اليوم لا يتصل بأدبي ولا يجوز أن يدخل
في عداد عملي . ذلك هو عهد اشتغالي بكتابة القصص
التمثيلية لفرقة « عكاشة » حوالى عام ١٩٢٣ . غير أن

المصادفة شاءت أخيراً أن ألتقي بمن يذكرني بهذا العهد ، ويعرض على طرفاً مما كنا نعمل في ذلك الحين . ذلك روائى اشترك معى في قطعة موسيقية قام بتلحينها المرحوم كامل الخلعى . ثم انقطع عن الفن منذ ذلك الوقت وشغلته شئون الحياة . ثم اختلينا فجعل ينشد لى بعض أغاني رواياتنا القديمة وأنا فى ذهول ! شد ما تغيرت أنا وتغيرت نظرتى للفن مرات ومرات خلال تلك السنوات ! ولكنه هو باق كما كان على احترام تلك القواعد والمثل التى كانت هدفنا ومرمى أبصارنا فى الكتابة المسرحية . إنه فيما خيل إلى لم يقرأ شيئاً مما أكتب وأنشر اليوم . فهو لا يعترف بعملى الآن . وهو إذ يحادثنى فى شئون الفن لا يبدى اهتماماً ولا إعجاباً إلا بما كنت

أصنع قبل ثمانية عشر عاما . أما اليوم فأنا في نظره
غير موجود . إنه يذكرني بأشخاص رواياتنا الغابرة
كمن يذكر بأناس من أهل الحسب والنسب والكرم
والشهادة لن يجود بمثلهم الزمان . فهو يترحم عليهم
ويقول : « مضى كل شيء ! ولن نرى مثيلهم أبداً على
خشبة مسرح من مسارح اليوم ! » . هذا صحيح .
وجعلت أتأمل قوله لحظة فغامرني شك في أمري اليوم
وقلت في نفسي : « ألا يكون هو على حق ؟ وأكون أنا
قد ضللت وانحرفت عن طريق الفن الحق ! إن
فن المسرح فن مرجعه السليقة السليمة لا الثقافة
الواسعة . إنه شيء والأدب شيء آخر . أتراني
محتاجاً إلى ثمانية عشر عاما أخرى لأكر عائداً إلى
ذلك النبع الذي بدأت منه ونأيت عنه ؟ » .

من المسئول عن فتور الحركة الأدبية الملحوظ
في مصر ؟ لا ينبغي أولاً أن نعلل ذلك بالحوادث
الدولية ، فإن الفتور كان دائماً موجوداً في جونا
الأدبي قبل أن تنشأ هذه الظروف . ثم إن المشاكل
السياسية وتأثيرها في النفوس والشعوب لم تحل في

أوروبا دون اهتمام الناس بشؤون الفكر وعناية الجمهور
بالمكتب والأدب . فما زالت الصحف الأدبية
تتحدث هناك عن ظهور الكتب الجديدة والأدباء
الجدد بعين الحماسة التي تتحدث بها في كل زمان .
وما زالت المسابقات الأدبية والجوائز السنوية تهز
الناس وتثير نشاط الكتاب كما تفعل في كل حين
فأحداث السياسة مها معظم خطرهما لا يمكن أن
تشل في أى بلد متحضر حركة الفن والفكر .
فالأمة الراقية شأنها شأن الانسان الحى مها يعرض
له من الحوادث فان رأسه دائما هو الرأس اليقظ
الذى لا ينى عن التفكير .

إذن ما بال هذا الرأس في بلدنا نائما ؟ وما بال

الناس لا يشعرون أن في مصر أدبا يتحرك ويتطور ،
وأن فيها أدباء يعملون وينتجون ؟ ما يكاد يمضى شهر
حتى تخرج المطابع كتباً في الشعر والنثر . وما يكاد
يوم يولى حتى يجيئنى البريد بكتاب جديد أو بديوان شعر
جديد . كم من الأدباء الجدد والكتاب الناشئين
يخرجون عندنا في كل عام أعمالاً جديدة بالكلام ؛
بل كم من الأدباء الناضجين ينشرون آراء خليقة
بالمناقشة ؛ ولكن كل ذلك يمر في فتور كأنها نسيمات
في مدينة الأموات . ما العلة ؟ العلة بسيطة : ما من
أحد في هذا البلد يبدو عليه التحمس الملتهب لشئون
الفكر والأدب . إن علة الفتور هي الأدباء أنفسهم .
إنهم في ميدان الأدب أقل نشاطاً منهم في ميدان

السياسة مثلا . إنهم يكتبون في الأدب وكأنهم
ناعسون . إن أعلامهم لا تثير في جو الفكر حراكا .
وهنا الفرق بين أدبائنا وأدباء أوروبا . إنهم هناك في
يقظة أدبية ، ومن كان في يقظة استطاع أن يوقظ
الآخرين .

إني من الذين يعتقدون أن في مصر اليوم نهضة
ملحوظة في الأدب والفن ، وأن الأدباء والقراء
يزدادون يوماً بعد يوم . على أن الذي يسترعى
الانتفات ويدعو إلى القلق هو أن نتاج الذهن لم يبلغ
بعد في قيمته المادية وأثره الاجتماعي المستوى

المطلوب . لماذا ؟ لأن هنالك عنصراً آخر في هذا
الشأن ما زال مفقوداً . إن قوة الأدب والفن في
أمة لا ترتكز فقط على طائفتي الأدباء والقراء .
هنالك طائفة ثالثة عليها يقع قسط كبير من عبء
العمل ، واليها ينسب بعض الفضل في إذاعة نتاج الذهن
وإيصاله إلى متناول كل يد ، وإحداث الضجيج
حولها ، والاعلان عن خطره . أولئك هم الوسطاء
والتجار والناشرون . ففي فرنسا مثلاً ما يكاد يظهر
كتاب جديد في باريس اليوم حتى تجده في صباح
الغد معروضاً في أصغر قرية من قرى الريف
الفرنسي . ووسائلهم في ذلك بسيطة أوجه إليها
نظر تجار كتبنا الكسالى المتواكلين . إنهم يعلمون

أن الكتاب لا يطلب عادة إلا في المحطة عند السفر ،
إذ هو خير أنيس في وحدة القطار . فتراثم قد جعلوا
في كل محطة صغيرة أو كبيرة عربة يد صغيرة كتلك
التي توضع عليها عندنا « البسطة » والفطائر
والمأكولات . يعرضون عليها كل مستحدث من
الكتب ، ويعهدون بها إلى صبي يمر بها على الرصيف
أمام كل قطار مار . هنا في مصر توجد فكرة
عرض الكتب والمجلات في المحطات ، ولكن الذي
يؤسف له حقاً هو أن مصالحة السمكة الحديدية
المصرية قد منحت هذا الامتياز لرجل رومي لا يعرض
غير الكتب والصحف الاقربجية ؛ لأن هذه المصالحة
لا تنظر إلا إلى راحة المسافر الأجنبي والسائح

الافرنجى ؛ أما نشر ثقافتنا فى أنحاء بلادنا على يدها
فهو مشروع لم تفكر بعد فيه .

لذلك سيظل الأدب والفكر وكل ما يتعلق
بالتثقيف الذهنى والروحى فى بلدنا محصورا فى محيط
محدود .

٣٧

يتساءل بعض الناس كيف لا يستطيع أدباؤنا
 أن ينتجوا انتاج أدباء الغرب ؟ أما أنا فأتساءل
 كيف استطاع أدباؤنا أن ينتجوا اطلاقا ولماذا هم
 يفتجون ؟ ان موقف ادبائنا اليوم ليدعو الى العجب .
 انهم في موقف لم يقفه أدب ولا أدباء في عصر من

العصور . ان المعروف في كل عصر أن الأدب يرفع
دائماً تشجيع طبقة من الطبقات . ففي عهد
الارستقراطية كان في كنف الملوك والخلفاء والأمراء
والنبلاء . يتبارون في حمايته . ويتسابقون في اعلاء
كلمته . وفي عهد الديمقراطية الحديثة وانعدام الأمية
انتقل أمره الى يد الشعب المتعلم فهو الذي يثيب
الأديب بالتهافت على اقتناء مكتبته . وهو الذي
يحوطه بمظاهر الاحتفال والتقدير . أما أدبنا اليوم ،
فهو حائر كاليتيم بين أرستقراطية لا وجود لها .
وان وجدت فلا شأن لها بأدب ولا أدباء ، وبين
ديموقراطية اسمية في شعوب لم يتم تعليمها ، فهي بعد
لا تعنى بأدب ولا أدباء فاننا ننتج ونحن نعرف أن

انتاجنا لا بهم الحكم ولا المحكومين . وان ثمرات
هذا الفكر الذى أضعنا من أجله كل حياتنا الجميلة
لن ينجيها غير نفر قليل ممن ينظرون الى استشهادنا
بعين الرثاء . نعم ان هو الا استشهاد ، هذا
الأدب فى هذه البلاد لاشئ غير ذلك .
وانى قد ساءلت نفسى مرارا لمن أنشر كتبى ؟ فكان
الجواب : انى انما أفعل من أجل أولئك التسعة أو
العشرة من الأدباء الكرام الذين يفهمونى لانهم
يعانون عين الألم ، وينتظمون معى فى سلك
العذاب ، ويدبون مثلى على أقلامهم فى تلك الحياة
الطويلة الجرداء ، كأنها صحراء من الجليد لا يهب
عائنا فيها غير صقيع الالهال من الشعب وأصحاب

السلطان . ولكننا مع ذلك نسير ، ونسير متجادين ،
أيدي بعضنا في أيدي البعض كأننا منفيون في مجاهل
سيميريا ... وما نحن في الحقيقة أكثر من ذلك ...
ما نحن الا منفيون في مجاهل — اهل « فكرنا » الذي
يجهله الناس !!

٣٨

طالما صحت قائلا ان الدولة لا تنظر الى الأدب
 بعين الجدد . بل انه عندها شيء وهمي لا وجود له
 ولا حساب . واني يوم ذكرت الدولة في مقام
 الأدب لم أورد منها تشریف الأدب بحمايتها ، فالأدب
 شریف بدونها وهي لا تستطيع له تشريفا ، انما هو

الذى يستطيع اذا اراد أن يشرفها وينوّه بها . انما أردت من الدولة أن تنظم بوسائلها المادية أسواق الأدب المادية كما تنظم بقية المرافق الحيوية الأخرى حتى يتطهر من السماسرة والمستغلين . انى أردت من الدولة أن تصون نساكننا من جشع الطامعين كما تصون مال الأفراد من عدوان اللصوص . فلقد كان كل عجبى أن الدولة لا تعترف بمصالح الأدباء اعترافها بمصالح الأفراد ، فهى تتركهم نهبا للناهبين حيث تقوم وتقعّد اذا استبدّ تاجر بسوق الغلال ، أو استولى مراب على بعض المال !

وأقول اليوم إن الأدباء أنفسهم لا يريدون أن يحملوا الدولة على الايمان بحقيقة الأدب . بل إن

الأدباء وقد انكرتهم الدولة وانكرت بضاعتهم لم
يفعلوا شيئاً ولم يبدوا حراً كما . بل إن الأمر قد
بلغ من السوء حدا رأى فيه الأدباء نتاج اذهانهم
يسقط في التراب كما تسقط ثمار الشجرة الناضجة ،
فلا يتحركون ولا يصيحون في الناس : ان اقبلوا
واجمعوا هذه الفسادة وانتفعوا بها واطلبوا المزيد
حتى تنشط الشجرة للأثمار ولا يحف مأوها من الترك
والاهمال . ومن العجب انهم يرون زبدة جهودهم
تتلقها ايدي الوسطاء من التجار الذين يتربصون بهم
كما تتربص جوارح الطير بصغار العصافير فلا يحاولون
المداولة فيما بينهم للخلاص من هذا المصير .
ان انعدام روح النظام بين الأدباء وتفرق شملهم

وانصرفهم عن النظر فيما يربطهم جميعاً من مصالح
وما يعينهم جميعاً من مسائل قد فوت عليهم النفع
المادى والأدبى وجعلهم فئة لا خطر لها ولا وزن فى
نظر الدولة ، ولقمة باردة سائغة فى فم التجار
والوسطاء . تلك حال الناضجين المعروفين من
أدبائنا ، أولئك الذين يتخذهم الناشئون من الأدباء
مطمحاً لا نظارهم ، ويرون فيهم حلماً ذهبياً جميلاً ،
ويتحرقون عجلة وشوقاً لبلوغ مراتبهم ، ويتوسلون
اليهم أن يأخذوا بأيديهم ويقودوهم فى هذا الطريق ...
واجب الأمانة يدعونى أن اصارح الناشئين :
أيامكم أن تعقدوا الآمال الكبار على الأدب فى
بلادنا اليوم ، اذا استمر الحال على ما ترون . فما

أرض الأدب الآن سوى مستنقع مهمل ، حرام
أن تلقى فيه بذور . وحسبكم تلك الزهرات القليلة
الوحشية التي تنبت من تلقاء نفسها على حواشيه فلم
يأبه لها أحد ولم يعن بتعهدها وريها انسان !

التجارب هي إحدى وسائل « العلم ». ولعل ساعة
« التجربة » هي أمتع لحظات « العالم ». خطر لى
مرة أن أقوم بتجربة غريبة ممتعة . أن أضع امرأة
فاتنة بين طائفة من ادبائنا المعروفين . ثم أنظر بعد
ذلك ما يكون . انى على ثقة انهم لن يناموا ليلتهم

قبل أن يسطر كل منهم على الورق أشياء قد تكون
من أجل ما كتب . إن المرأة الجميلة في مجلس
الأدب لها فعل السحر ، تستطيع بغير عصا أن
تخرج جواهر البيان من أفواه الأدباء . أنا لا نكاد
نجد أدباء من الآداب العظيمة لم يرو لنا خبر المرأة في
مجلس أهل الأدب . فإذا راجعنا الأدب العربي القديم
وجدنا ذكر الجوارى اللواتي كالشموس ، الضاربات
بالعود، اللاعبات بالنرد، الراويات للشعر . وإذا نظرنا في
آداب الغرب في كل عصر وجدنا أخبار «الصالونات»
وما فيها من أقمار كلهن ذكاء وثقافة ودلال . نعم .
وهل يمر يوم على أديب من أدباء الغرب لا يجلس فيه
إلى مائدة ترينها باقات النساء الجميلات . فيلبث ساعة
يتحدث إلى ملكين رقيقين عن يمينه ويساره يقطر

الوحى من شفقتيهما ثم يعود الى عزلته وكتبه وورقه
ليمضى فى انتاجه الأدبى ، هذا الانتاج الذى نراه بعد
ذلك آية من آيات الاعجاز . أما نحن فلا عرب بلغنا
ولا غرب . ولا شمس حولنا ولا أقمار . ولكننا أدباء
كالعناكب ننسج فى الظلام ونعيش فى الجذب
والحرمان . ومع ذلك ننتج أحيانا . وهنا حقا آية
الاعجاز . ان اولئك الذين يهتمون أدبنا الحديث بالتقصير
ثم قوم ظالمون أو أغرار لا يبصرون . إن أدباءنا
المعاصرين لجبارة مستبسلون ومجاهدون مستشهدون
لم يعرف مثلهم أدب من الآداب . فما من أدب فى
التاريخ استطاع أن يظهر فى ظروف اجتمعت على خنقه
ك هذه الظروف . اللهم انا شهداء . اللهم انا شهداء . !!

«قرأت لك في مقال انك تساعد ناشئة الادب ،
 واشترطت لذلك شروطاً . وإنى راض بها وإليك ما
 يزيدك معرفة بي : إنى قراض تذكر . أجرى
 ضئيل يبلغ ١٢٠ ملياً في اليوم . واطلاعى محدود .
 وذلك ناتج عن فقرى . لا اقرأ غير بعض المجلات الأدبية

ولم اقرأ من الكتب غير بعض مؤلفات
المنفلوطى وكتب أخرى . وكانت كتابتى جيدة فى
الموضوعات الخيالية فقط . ولكنى منذ بدأت أتناثر
بكم تغلبت طريقتكم على . وأنا قوى الذاكرة وأميل
إلى التفكير . وأستطيع أن أنفق فى شراء الكتب
الأدبية ما يقرب من نصف الجنيه شهريا كما أنى
أستطيع أن أختلس للأدب خمس ساعات يوميا .
لعل فى هذه الايضاحات ما يهون عليكم أمر
مساعدتى على السير فى طريق الأدب الذى تصفونه
بأنه وعر شائك . ولقد زاد إغرائى به ما نشرتموه
أخيراً من تحذير للشبان من الاشتغال به فى
هذا العصر . . . !»

نشرت هذه الرسالة التي جاءتني ضمن عشرات
الرسائل في هذا الموضوع لسبب واحد : هو عجيبي
وإعجابي بقارىء تلك حاله . يبذل عن طيب خاطر سدس
مرتبه الشهرى وقسطا وافرا من وقته في سبيل
الأدب . إنه يذكرني بقراء أوروبا . أولئك الذين
يخصصون جزءا ثابتا في ميزانياتهم للكتب ووقتا
منتظما معلوما للقراءة . مثل هؤلاء القراء هم الذين
قامت على أكتافهم نهضات أوروبا الأدبية . وهم
الذين ظهر من بينهم أدباء أوروبا العظام . فإن الاديب
لا يتخرج في مدرسة . إنما ينبت في حقل الكتب
والمطالعات الشخصية . وفي الأدب الفرنسى الحديث
مثل صارخ لأديب من أصل بلقانى هو : « باتايت

استراتي « لم يكن يعرف الفرنسية ولكنه غرق
سنوات في المطالعة وضمن بماله القليل على الطعام
وأنفقه في شراء كتب جعل يلبسهم صفحاتها التهاما .
وإذا هو في يوم من الأيام قد استطاع الكتابة
بالفرنسية وإذا هو كاتب معروف يربح من كتبه
الآلاف . اعطوني إذن ألفين من طراز هذا القارىء .
وأنا أضمن لمصر نهضة أدبية رائعة وأدباء جدد
يسيرون في طريق المجد .

٤١

ينبغي أن نحترم أولئك الذين يحترمون الفكر .
 رأيت هذا الأسبوع واحدا من هؤلاء . هو طيب
 فاضل ، طلبني في منزلي بالتليفون مرات ، ثم زارني
 في مكنتي مرتين دون أن يظفر بلقائي . ولم يأس .
 فحضر الثالثة فوجدني وأخبرني انه يحتفظ بكل

كتبي الا كتابا واحدا ، بحث عنه كثيرا فلم يجده .
وهو يدفع فيه الآن أبهظ ثمن حتى لا تنقص مجموعته
المجلدة افخر تجليد . فلم يؤثر في نفسي أيضا هذا
الكلام ، وأحلتها في اختصار الى مكتبة باعته النسخة
بضعف ثمنها . واذا بخطاب شكر واعتراف بالجميل
يصانى من هذا الرجل في اليوم التالى . شكر على
ماذا ؟ لست أدرى . ولكنى تأملت قليلا فضجلت .
ان هذا الرجل يحترم الفكر في ذاته وينفق في سبيله
الجهد والمال . ان هذا الرجل يشكرنى وقد دفع ثمن
النسخة ، بينما أرانى قد أهديت كتبي تورطا أو حمقا
الى أناس لم يعنوا حتى بارسال بطاقة شكر .
وتذكرت أولئك الذين لا يفعلون شيئا الا أن

ينتظروا أن نهدي اليهم كتبنا ليقرأوها متفضلين
أو لا يقرأوها مهملين . مثل هؤلاء ينبغي أن
نحتقرهم مهما تكن مكانتهم . إن الفكر ما ارتفع
قدره يوما الا على أيدي رجال من طراز ذلك الطيب
الفاضل . وما صغر شأنه الا على أيدي هذه المخلوقات
التي تبذل مالها من أجل كأس خمر وتضن به على
كتاب مفعم بالحكمة . ولقد سرت عدوى هذا
« التسول » الأدبي الى الهيئات العامة والثقافية .
فقد جاءني كذلك هذا الاسبوع خطاب من دار
الكتب الحكومية تطلب نسخا من كتابي الجديد
هدية أو « صدقة » ! وقد علمت أن الدار لها « مال »
مخصص لاقتناء الكتب . ولكن ماذا نقول في زمن

هانت فيه قيمة الفكر حتى بين الهيئات العامية
الرسمية . الا فليعلم الناس منذ اليوم انى سأبطل
عادة « الهدايا » ابتداء من كتابى القادم . وانى لن
أقدم جهدى الا لقرائى المخلصين الذين يقدمون الى
جهدى وعنايتهم ومالهم . أما الآخرون فلن أعترف
لهم بوجود . فانى منذ اليوم لن احترم الا من يحترم
فكرى ويسعى اليه ويبذل فيه ما يستطيع !!

جاءني بريد « بيروت » هذا الأسبوع بمجلة
 أدبية فاضلة ما كدت ألقى نظرة على صدرها حتى
 وجدته زاخرا بسب مصر ورجال الأدب في مصر .
 مع استنكار « لامتداد الأدب المصرى والثقافة
 المصرية في أجواء البلاد العربية » . وبعد أن نفى

الكاتب الكريم عن مؤلفات المصريين كل قيمة في
بضعة أسطر ، ختم الكلام بقوله : « إننى أنكر
هذه الثقافة اللقيطة ويعز على كلبنائى عربى أن
تؤخذ بلادى بالتدجيل وتخضع بالدعايات المجانية أو
المأجورة » .

ما هو الدافع إلى هذا القول ؟ أهو نقد الجهود
فى ذاتها حتى نستيقظ قليلا ونرى أن قراءنا فى البلاد
الشقيقة قد بدأوا يسأمون إنتاجنا ، ويستحثوننا
على تجديد طرائقنا وتعزيز وسائلنا ، حتى يظفروا
ويظفر الأدب العربى الحديث بالنهضة الباهرة
المنشودة ؟ إن كان هذا هو قصد المجلة والكاتب
فهو قصد نبيل ، لا يسع مصر وكتابها إلا أن

يبعثوا إليهما من أجله أصدق عبارات الشكر .
أما إذا كان الباعث هو مجرد الغضب لأن
مصر بالذات هي التي تنبعث منها أشعة الثقافة العربية
الحديثة في الوقت الحاضر ، فتلك عاطفة لا تشرف
صاحبها ولا نحب نحن أن نسلم بوجودها ، خصوصاً
في بلد تربطنا به أواصر النسب .

ومع ذلك فهذا أمر لا ينبغي أن يكون موضع
جدال ، لأنه أمر يتعلق بالواقع .

فاذا كان الواقع هو أن نسيم الثقافة يهب علينا
اليوم من جبال لبنان ، فلا أحب إلينا نحن المصريين
من هذا . وهو خير لنا وأشرف من أن يهب علينا
من جبال الألب .

غير أن الذي يؤلمني هو أننا معشر الشرقيين
يكبر علينا دائماً أن نرى الفضل يأتينا من شرق ،
ولا نغضب بل نفخر إذ يأتينا الفخر من غربي !
ولأرفع صوتي صريحا : إن الشرق لن تقوم له
قائمة إذا بقيت فيه ذرة من روح التنابد والتحاسد .
فإن لم يسعفنا التعاون والتساند فلنوقف بسقوطنا
العاجل بين فكي الغرب النهم .

هل ينتظر اللغة العربية والأدب العربي
الحديث في مصر مستقبل سعيد ؟ لقد بدرت
البوادر بشروع بعض الأجانب في الاقبال على تعلم
اللغة العربية والاهتمام بمعرفة كتاب مصر البارزين .
من رأي أن الحياة لن تدب في هذه اللغة وهذا

الأدب إلا إذا ظفر بقراء كثيرين من هذا العنصر
النشط المثقف . وإنى لا أتخيل اليوم الذى يتم فيه ضم
أجانب مصر أو أغلبهم إلى حظيرة قرائنا فى لغتنا .
هؤلاء الأجانب الذين يعدون القراءة غذاء ذهنيًا له
ضرورته فى حياتهم اليومية ، شأنه فى ذلك شأن
الحاجات الأولية ؛ هؤلاء الآلاف القليلة من
الأجانب الذين استطاعوا أن يكفوا الرواج حوانيت
الكتب الأجنبية التى لا يخلو منها شارع كبير فى أى
مدينة كبيرة من مدن هذه الدولة العربية اللغة ؛
هؤلاء النفر الذين استطاعوا أن ينشئوا لأنفسهم
صحفًا ومجلات بلغاتهم المختلفة وأن يضمنوا لها حياة
وازدهاراً . ترى ما الذى يحدث لو أن هؤلاء فهموا

أخيراً أن استقلال مصر وسيادتها معناه سيادة لغتها
وآدابها وفنونها، على الأقل فوق أرضها وفي حدود
بلادها، وأن الخير والكياسة والمصالحة تقضى عليهم
أن يكفوا عن تجاهل لغة الدولة وأن يعيشوا بيننا كما
يعيش كل أجنبي في دولة محترمة، يعنى بتعلم لغتها
والاطلاع على أدبها ومسيرة الحياة الذهنية
والاجتماعية فيها؟ لا ريب عندي، لو وقع ذلك
الحدث، في أن أدبنا سيتغير ويتطور في مثل لمح
البصر، تطورات تثير الدهشة والعجب. ليس فقط
لأن نتاج فكرنا سيرتفع شأنه في السوق، بل لأنه
سيرتفع في ذاته من حيث الصنف والقيمة. فإن
القارئ الجيد يخلق الكاتب الجيد، و« الزبون »

المحترم يوجد الحانوت « المحترم » .
لكن ... كيف نحمل الأ جانب على ارتياد
« حانوتنا » الفكرى وأكثرهم قد استقرت فى نفسه
بغير علة فكرة الاستخفاف بلغتنا ؟ ما هى الوسائل
التي ينبغى لنا أن نتخذها لنزع هذه الفكرة عنهم
وترغيبهم فى بضاعتنا ؟ هذا سؤال مطروح على القراء
المثقفين .

قرأت بين الرسائل التي جاءتني في موضوع
نشر اللغة العربية بين الأجانب رسالة لم أربداً من
إثباتها هنا ، لأنها قد عرضت في فقرات سبع ،
مسائل ينبغي أن توضع موضع التفكير . قال صاحب
هذه الرسالة : « كي تنجح في اجتذاب الأجانب إلى

« حانوتنا » الفكرى يجب أن تتبع ما يأتى :

أولا — أن يتكلم المصريون جميعا باللغة العربية
فى كل المناسبات ، وألا يسمحوا لأنفسهم ما داموا
يعيشون فى مصر بالتكلم بأية لغة أخرى مهما ترتب
على ذلك من نتائج .

ثانيا — أن تكون جميع مكاتبنا باللغة العربية ،
وأن نضطر الأجنبى إلى قبول الكتابة إليهم بلغتنا .
ثالثا — أن يكون التعليم فى جميع المدارس
الأجنبية فى مصر باللغة العربية .

رابعا — أن يوطد الكاتب المصرى عزمه على
أن يكتب للعالم . إذ على الرغم من أن ما يكتبه لن
يخرج عن حدود الأمم الشرقية الناطقة بالضاد ، إلا

أن مصر بالذات هي شبه عالم صغير فيها من كل الأمم
وكل الجنسيات .

خامسا - العناية بأسلوب الكتابة ، والارتقاء
إلى السلاسة مع السهولة ، وأن يجتهد كل كاتب في
الكشف عن نفسه وغرضه في وضوح وصفاء .

سادسا - أن تعرض المطبوعات بأثمان معتدلة
لأغراء الأجنب بقراءتها .

سابعا - أن تكون هناك رقابة على المؤلفات
جميعا فلا ينشر منها إلا ما يستحق النشر ، حتى لا
نكلف الأجنب قراءة سخافاتنا المزرية .

تلك مقترحات صاحب الرسالة . وهي من غير
شك كافية لتحقيق الغرض . لكن العضلة في

التنفيذ ، فإن بعضها لا يمكن أن يقوم به غير
حكومة قوية الشوكة مرهوبة الجانب ، وبعضها يقع
حملة على كواهل الأدباء .

وأعجبني قول هذا الأديب : إن الكاتب
المصري ينبغي أولاً أن يوطن عزمه على أن يكتب
للعالم كله . ولعل هنا مفتاح القضية كلها ، فهل في
مصر الآن أدباء يكتبون للعالم كله ؟ ذاك موضوع
يحتاج في بحثه إلى صفحات طوال .

« ٠٠٠ لم يتيسر لى قراءة كل كتبك . إنما الذى
قرأته لك هو مقالات وقصص ومساجلات فى
الصحف والمجلات ، ومع أن كل آرائك حرة وجريئة
إلا أن رأيا واحدا هو الذى ملك شعورى وكيانى :
(إن من ملك قلباً حاراً ولساناً حراً فهو الذى

يستطيع أن يسود العالم) . سيدى : إن قلبى لحر وإن
لسانى لحر وبهاتين الوسيلتين يعظم أملى فى المستقبل
إنى أعشق الجمال وأحب الأدب الرفيع ولمكنهم
يريدوننى أن أكون معلماً باحدى المدارس الأتزامية .
إن جو القرية يكاد يخنقنى . أريد أن أؤدى رسالتى
فى الحياة ، وهى رسالة الكاتب الموهوب ، لا أن
أعيش على هامش الحياة ! إنه ليسرنى أنى استطعت
إسماعك صوتى . فان رأيت يا سيدى أن هذه النواة
أهل للحياة فتعهد بها بالغرس والرى . لى من حسن
الأمل فىك ما يجعلنى أطمئن إلى أنك لن ترمى
برسالتى فى سلة المهملات ... »

قبل كل شئ ، أحب أن أقول لصاحب هذه

الرسالة أن يحسن ظنه بحياته . فلتن كان هنالك
إنسان يعيش على هامش الحياة ، فهو أنا صاحب هذا
البرج القصي . إن جو القرية لا يمكن أن يكون خانقاً
للقلب الشاعر . وإن مهنة التعليم والعمل على تكوين
نفوس نبيلة ، ونفخ روح الجمال في نشء ساذج ،
وإيقاظ عيون صغيرة على حسن الطبيعة ؛ كل هذا
خلق في ذاته . ولكننا لا نريد أن نرى الخلق
إلا في مقال يكتب ، ولا المجد إلا في هراء ينشر .
هنالك شعراء عظام ما فارقوا قرايم قط وما تركوا
صناعاتهم الصغيرة قط . إن القلب الحار يسبغ الخير
والجمال على ما حوله . ولو كان لصاحب هذه الرسالة
قلب حار حقيقة لظهر لهذا أثر في قريته ومدرسته

أولاً، ثم في مادة نفسه ثانياً . فالقلب الحار يحتاج إلى
وقود ليشع ولا يخمد، وأيسر الوقود الكتب .
وصاحب الرسالة لا يقرأ كتباً ولكنه يطالع
مطالعات سطحية سريعة ناقصة . كلا . إن
« القلب الحار » ليس كلمة تقال

ليس لى وحى . فان آلهة الفن لم يشرفونى
 برسالة ذلك الملاك ذى الأجنحة البيضاء ، يبعثونه
 إلى فى لحظة من اللحظات . انما الوحى الذى أعرفه
 هو انكباب على المكتب سبع ساعات فى عمل
 متصل . فاذا لم يأت وحى فى خلال هذه الساعات

الطويلة . فانه لن يأتى مطلقا . على أن الصعوبة
عندى هى فى ارغام نفسى على الجلوس الى المكتب
وتهيئة ذلك الجو العبق برائحة الخلق والابداع ، المشبع
بروح التناسق والجمال . ذلك الجو الذى يمكن أن يخرج
فيه شئ ، جميل . ولى فى ذلك طريقتى التى تناسبنى .
وهى أن أدير « الجراموفون » واستمع الى الطفل
الالهى « موزار » ساعة من الزمن أو ساعتين ، فإذا
يدى فى غلب الأحيان تجرى بعد ذلك على الورق .
وإذا « الجراموفون » ، وهو يقف من تلقاء نفسه ،
قد صمت منذ زمن طويل دون أن أشعر به ، وإذا
أنا محاط بصمت عميق لا يقطعه غالباً الا رنين
الساعة الكبيرة تدق دقائق أعرف منها انى غبت عن

الوجود منكبا على العمل أكثر من خمس ساعات .
والويل كل الويل لمن كان بينه وبينى ميعاد خلال
ذلك الوقت . فان كانت ثقته في دقة مواعيدى ما
زالت قائمة وانتظرنى ، فانه يجدى قد أبطأت
عليه لا بأرباع الساعات ولا بأنصافها . بل

رأيت في نومي البارحة رؤيا أفزعتنى : انى
تزوجت . ولم تبين الرؤيا كيف تم ذلك . ولكنى
وجدت نفسى على فرش وثيرة من الدمقس الأزرق
فى حجرة جميلة ذات سجف من حرير متألق متماوج
الألوان كرقبة اليمامة . وسمعت حولى من يقول :

- هذا جهازها .

- جهاز من ؟

- عروسك .

- ومن الذى زوجنى ؟ ومن العروس ؟

- من بيت حسب ونسب . ذات جمال ومال

وحلاوة لسان . وهى فرصة كان لا بد من انتهازها .

وقد علت بك السن وكاد يفوت أوان الزواج .

- ومن انتهز لى الفرصة ؟

- أولاد الحلال ، من قرائك المعجبين الذين

يهتمون لأمرك .

- شىء لطيف . وهؤلاء القراء المعجبون

الذين زوجونى ، كيف فعلوا ذلك ، وأين وجدوا

لى هذه العروس . . .

- دعك من هذا الفضول . لا شأن لك بكل
هذه التفاصيل . ولا تشغل بالك الا بما أنت فيه من
نعيم مقيم .

- والعروس ، أسبق لى رؤيتها ؟

- لا . سترها الليلة .

- عجباً . وكيف يزوجونى ممن لم أرها .
ونحن فى القرن العشرين ، أيها الناس . إن هذا
جاوز الحدود

- هى أيضا لم ترك .

- اقرأت كتبى ؟

- لو كانت قرأت كتبك لما تزوجتك .

- وكيف اذن أقنعوها ؟

— قالوا لها عنك كل شيء الا الأدب
والتأليف . فقد وجدوا من الحكمة واصالة الرأي
كتمان ذلك عنها الى أن يتم العقد ويتعذر النقض .
وفتحت عيني في الصباح وأنا أقول : « اللهم أحمك
على استيقاظي قبل تمام العقد ، وقبل مواجهة الفتاة
بذلك العيب الذي لا يغتفر . إن المرأة لن تتغير . ان شئون
الفكر عندها شيء مخيف . وكم من شعراء وأدباء
أخفوا على نساءهم كنوز عقولهم ، ولم يظهروا لهن الا
كما يردنهن : رجالا مبتذلين كبقية الرجال !

٤٨

أترى الأخفاق فى الحب هو الذى يشمر أحيانا
 تلك المخلوقات الفنية التى ربحت من ورائها الإنسانية ؟
 يحلو لى دائماً أن أتخيل ان هنالك ملاكاً حارساً أو
 سجاناً قد وكل به أمر الفنان أو المفكر أو الأديب ،
 يسلط عليه « الحب » كلما وجد ان معينه قد نضب ،

ولا يأذن له بالنجاح في هذا الحب الا بمقدار ، حتى
لا يشغل به عن الخلق والانتاج . ولقد أمعنت في
هذا الخيال حتى اعتقدت ان هذا الملاك حقيقة واقعة
فكنت اناديه أحيانا وأتوسل اليه أن : « ارحمني ولا
تضن عليّ وكن كريما ! » . فكان يجيب قائلا كالمخاطب
لنفسه : « لن يخدعني مثلك . اني أعرفك وأفهمك .
ان الحب لو ابتسم لك قليلا لجريت وراءه ورميت
في وجوهنا بالكتب والقلم والورق ! » . وهكذا
اعتدت أن أرضى بقسمتي ونصيبى . وأصبحت أرى
أن كل ما قسم لي من الحب هو الخروج منه بكتاب
أو كتابين أعرضهما على « حضرة » الملاك السجّان .
فأنا إذن في واقع الأمر ، لا فرق بيني وبين تسلك

الطيور والبيغاوات التي يحبسونها في أقفاص حديقة
الحيوان ، يقدمون اليها قليلا من « السكر » أو
« الحب » بمقدار لا يلهي أفواهها عن الكلام والغناء
والثرثرة التي يطلبها الزوار والمستمعون .

فهل نطمع نحن « البيغاوات الآدمية » في أن يلقى إلينا
من وراء القضبان بأقعة سكر دفعة واحدة « نجرشها »
بأفواهنا دون أن يطلب إلينا الغناء أو البكاء . . . !?

منذ عشرة أعوام عقدت معاهدة على جبل
« أولب » بين « أبولون » و « كوييدون » تتعلق
بى . ولا أعرف علي وجه التفصيل نصوص تلك
المعاهدة . فلقد كانت معاهدة سرية . ولكن ،
يخيل إلى أن « آله الفن » أراد أن يعتبرنى من

« مناسطق نفوذه » فخرم على آله « الحب » أن يلقي
سهما واحدا من قوسه الذهبية الى هذه المنطقة . وقد
تبين لى فى مواقف كثيرة من حياتى أن آله « الحب »
قد احترم حقا هذه المعاهدة وفى أحيان أخرى رأيت
كأن « كوييدون » ينظر الى « قلابى » نظرات ملؤها
المطامع الاستعمارية . وانه يتحين الفرص والظروف .
والآله الفن كما هو معلوم ، ينادى دائما بالحرية اذ لا
فن بغير حرية مكفولة فى كل زمان . والآله الحب
ينزع الى السلاطة والسيطرة والعنف والتقييد
بالسلاسل والأغلال . ولست أدري لماذا يذكرنى
هذا الصراع بينهما بالصراع القائم اليوم بين « انجلترا »
و « ايطاليا » . فانجلترا بلد الديموقراطية والحرية ،

وايطاليا رمز الدكتاتورية والسلطة المطلقة . ولقد
وقع حديثا نزاع بين الطرفين ، فأغفلت المعاهدة
والقيت السهام ، وأعلن الدكتاتور أنه افتتح المنطقة
« الحرام » . فلم يعترف له منافسه بهذا الفتح .
وسارت الأيام سيرها وأنا راض مطمئن اطمئنان
« النجاشي » المسكين . الى أن قرأت في البريد الأخير
ان انجلترا ستحمل العالم على الاعتراف بالفتح
الايطالى « للحبشة » . فوضعت يدي على « قلبي »
وأدركت أن « الحرية » الجميلة ليست الا حملا ضعيفا
تنتظره دائما أنياب الذئاب . وأن « المعاهدات »
ليست الا « محطات » انتظار لساعات الوثوب !!

أذاع المتحف المصرى حديثاً فى أنحاء العالم من
خلال بوقين أحدهما من الفضة ، والآخر من
النحاس ، هما من مخلفات توت عنخ آمون . وقد
كانت هذه الاذاعة أول صوت يخرج منها منذ ثلاثة
آلاف عام . قرأت هذا الخبر فى الصحف كما قرأه

الناس . وجاء الليل فتخيلت هذين البوقين قد أعيدها
إلى مكانهما بالمتحف ، وقد سكنت الأصوات ،
ونامت الكائنات ، فاذا هما ينهضان مستويين كأنهما
ثعبانان ، وجعلا يتحادثان :

البوق الفضى — عجباً ! ما هذه اللغة التى
خرجت من فى اليوم ؟

البوق النحاسى — إنها لغة غير مفهومة لهاها
لغة بعض العبيد أو الأسرى الذين نأتى بهم إلى أرضنا
من آن لآن .

البوق الفضى — نعم . إنها ليست لغة توت
عنخ آمون ! لكن كيف سمح الحراس للعبيد والأسرى
أن يحملونا بأيديهم ، ويدنسوا أفواهنا برطاناتهم !

البوق النحاسى - هذا ما يشير دهشتى .

البوق الفضى - يا للعار ! فى الفضى يخرج منه

مثل هذه الرطانة ! هذا لم يحدث لى قط قبل الآن !

البوق النحاسى - وأنا لم يقع لى مثل هذا قبل

اليوم قط !

البوق الفضى - وبعد . أذعن لهذه الكارثة !؟

البوق النحاسى - لا . لا ينبغي أن نذعن .

البوق الفضى - وماذا نستطيع أن نفعل ؟

البوق النحاسى - نستطيع أن نصيح وأن نرفع

أصواتنا فى أرجاء المكان ساخطين متضرعين ،

طالبين صيانة حرمتنا وكرامتنا . فلا ينفخ فينا بعد

الآن نافخ بغير لغة توت عنخ آمون . فمن أجلها

صنعنا ووجدنا . فلتخرس أفواهنا إلى أبد الآبدين ،

إذا نطقت بغير لغة توت عنخ آمون !

البوق الفضى - وإذا أجبرنا على النطق بغيرها ؟

البوق النحاسى - حقت اللعنة على من يجبرنا

على ذلك !

وذهب من أمام عيني شبح البوقين . وثبت

إلى نفسى وأنا أقول : « أهى لعنة أخرى كاللعنة

المومياء ، ما زال أمرها خافياً علي العلماء ! »

يذكرون أن كاتباً شرقياً راعه افتقار بلاده إلى
 ما عند الغرب من أسباب القوة فقال : — «أنا الشرق
 عندي فلسفات فمن يبيعني بها طائرات ؟ !
 هذه الكلمة خطأ كلها . فليس عند الشرق
 اليوم فلسفات . وإن الشرق يوم كانت عنده الفلسفات

كانت عنده أيضا كل ضروب القوة المعروفة في تلك
العهود . بل ان الفلاسفات يوم كانت موجودة في
أرضه فكر في اختراع الطائرات : «عباس بن فرناس»
وان هذه الفلاسفات يوم انتقلت الى الغرب انتقلت
معها بذرة روح الاختراع التي أنبتت الطائرات . . .
ان دماغ المهندس الذي يصنع الطائرة والغواصة
والدبابة هو دماغ قد كوّنته الفلاسفات والآداب
والفنون ، وزودته بملكات التفكير والتصور والخيال
أما الذين يظنون أن هذه المخترعات تظهر كالنباتات
البرية في الأمم دون أن تسبقها نهضات فكرية في
مختلف الفنون فأولئك هم الواهمون . . . إن الفكر
هو أساس القوة . وإن الأمم التي تتباهى اليوم بالقوة
المادية وحدها ، انما قامت فيها هذه القوة ذاتها على

دعائم الفكر والمفكرين من أمثال افلاطون ونيوتن وجوته وشيلرونيثشه وفاجنر ... الخ . فهم الذين صنعوا « القوة المفكرة » : ذلك « الدينامو » الذي أساء الطغاة استعماله فحولوه من أداة نعمة للإنسانية الى أداة نقمة على البشر .

فألى الذين بهرتهم القوة الوحشية في سلطانها الحاضر ، فأنكروا سريعا عناصر الحضارة الحقيقية وازدروا الأمم التي تتفانى في تجميل الحياة بالفنون والآداب ، أسوق هذه الكلمة وأصبح : « تكلمى دائما يا الهة الفكر والشعر ، فأن سلطانك هو الباقي . فمن كلمات فيك يصنع جوهر الحضارات ، وما دمت أنت في الوجود ، فأن الحياة تستحق الحياة ، والإنسان يستحق أن يسمى انسانا . . . »

نعم هي بالذات تضحية يبذلها الأديب الحر ،
 إذ يضع قلمه الرفيع « مؤقتا » في خدمة الوطن
 على صورة قد يابها الأدب الحر الرفيع . هكذا فعل
 « جيرودو » و « موروا » و « دوها ميل » وأغلب
 أعضاء المجمع اللغوى الفرنسى يوم رأوا داعى الوطن

يدعوهم الى الكفاح . فانبثوا وتوزعوا على الصحف
والراديو يجاهدون في تقوية روح الشعب بما في افلامهم
من مداد ، وبمسافر في شرايينهم من دم الرجولة
والشرف ٠٠٠ كتبوا ونشروا وأذاعوا ، لا بحوثا
ودروسا في مشكلات السياسة والاقتصاد والاجتماع ،
ولكن صيحات حارة مدوية ، تدعم ايمان الشعب
الذي نخرت فيه ديدان قوى خفية ، وهزت أركانه
همسات أخرى مسمومة ، قطرتها في نفوسه الدعاية
الأجنبية .

كل هذا يجدر بنا أن نعلمه حق العلم .
فإن أولئك الكتاب العظام كانوا يدركون حين جندوا
أنفسهم في الصحافة والأذاعة ، أنهم يضحون بأديهم

الحر وتفكيرهم الخالص وآرائهم الشخصية ، وأنهم
ينشرون صفحات مما يسميه بعض الأدباء والنقاد أدبا
رخيصا سهلا يسيرا ، موقنين أن هذا الإنتاج السريع
الزهيد هو في عرف « الأدب الحق » عمل ضائع لن
يحسب لهم في سجل الأعمال الأدبية الباقية ...

أما أن حركتهم تلك أفلحت أو لم تفاح فهذا ليس ذنبهم
ولا شأنهم . فحسبهم أن قد أدوا واجبهم وضموا أبلغ
تضحية تفرض على أديب . وبعد ، فما كان أيسر لي
الآن من الصمت بين جدران برجى العاجي .
ولكنني ظننت واجبنا نحن رجال القلم ، أن نصنع
الساعة شيئا لهذا البلد . وما دمنا لا نملك من صحة
الجسم ما نبذل معه دمنا ، فلنبذل على الأقل مداد

أفلامنا وحرارة أفئدتنا .

فهل نبخل ببذل هذه الأشياء نزولا على ارادة

الفلسفة العليا التي تقضى بالسكوت ؟

٥٣

أبصرت اليوم من نافذة برجى « شهر يوليو »
 مقبلا بخطى سريعة وهو متدثر برداء أحمر كأنه قطع
 اللهب ، وقد تصبب من جبينه العرق ، وهو يقرع
 باب برجى ويصيح :
 — أيها الغافل عن جسمه ، القابع بين جدران

سجنه . انطلق قليلا إلى نسيم البحار وهواء الجبال ،
وأرح نفسك واسترح من نفسك !

فسمع الجواب من أعماق نفسى :

- وكيف يستريح من هذه النفس وهى تمتطى
وجوده امتطاء ؟

فقال « الشهر » :

- أو ندعن لهذا الفارس القادى حتى يسحق
المطية سحقاً ؟ !

فقالت النفس :

- أهى رحمة منك بالمطية أم أنك تريد أن
تأخذها منى لنفسك أيها الشهر اللعين !

- إنها ستجد عندى الراحة والنعيم . وسأقدم
لها « علفاً » من فاكهة الجبال الغضة وزهر الغابات

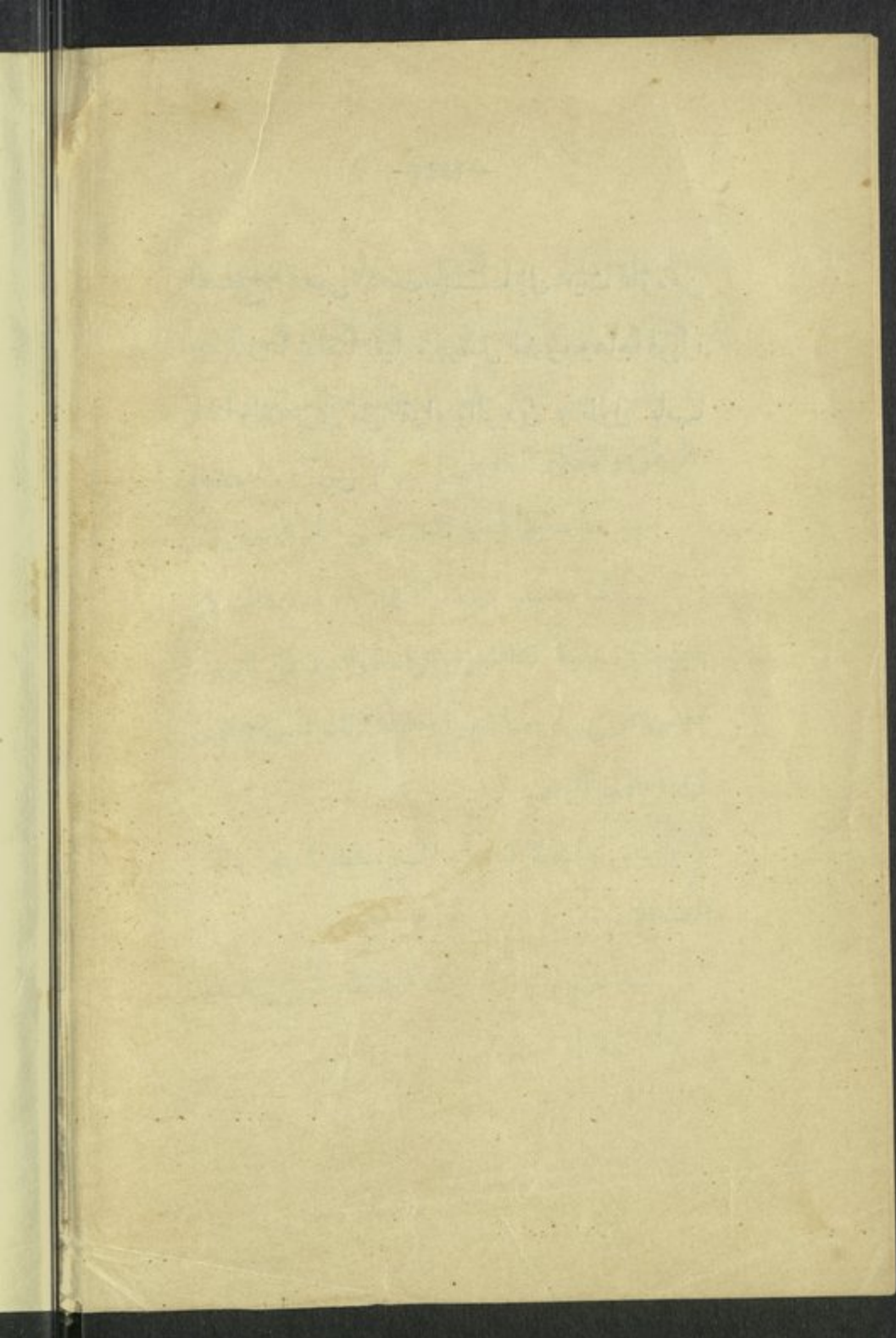
الجميل ونسيم صيفي العليل ... أما أنت فماذا تجد
عندك ؟ إنك لن تقدمي إلى هذه المطية النحيلة غير
« علف » من الحبر والورق والسهاد المضنى والعمل
المرهق والتفكير الطويل !

— سأعطيها النور الذى يضيء لها السبيل !
— لا تأخذيها بهذه الكلمات . ومع ذلك فإن
عينها فى حاجة كذلك إلى الراحة والبعد عن النور .
أقصى عن وجهها شهراً واحداً ذلك المصباح الذى
لزمها طول الشهور !

— إنها لا تستطيع السير خطوة بغير ذلك
المصباح .

— أقسم لك أن الزيت قد نفذ من هذا

المصباح . دعيني أذهب به — إلى حيث تملؤه من
جديد زيتاً خالصاً نقياً ، يرسل الضوء وهاجاً قوياً ،
لها وللآخرين من القراء والمريدين ، طول عامها
القادم ... آمين !







ADD. LIBRARY

2012.01.15 5:31pm

الحكيم، توفيق
من البرج العاجي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01040559

892.72

H_a438m nA